عظماء منسيون في

التاريـخ الحديث

عظمـــاء منسيــون
في
التـــاريخ الحديث

تأليف

د. محمد بن موسى الشريف


بسم الله الرحمن الرحيم

السلسلـــة الأولـــى

١. المجاهد البطل أحمد بن عرفان الشهيد.

٢. المجاهد الداعية عثمان بن فودي.

٣. المجاهد الداغستاني الإمام شامل.

٤. الداعية العجيب عبدالرشيد إبراهيم.

٥. الأمير المجاهد محمد بن عبدالكريم الخطابي.

٦. أبو الأحرار محمد محمود الزبيري.

٧. الباحثة عن الحقيقة مريم جميلة.

٨. شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي.

٩. شاعر تركيا محمد عاكف أُرْصوي.

١٠. الشيخ المجاهد سعيد بَيْران الكردي.

مقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن العصر الحديث مليء بالأحداث الضخمة، بدءاً من الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٩/١٢١١ ثم الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧، ثم الحملة الفرنسية على الجزائر سنة ١٨٣٠، ثم الحملة الفرنسية على تونس ١٨٨١، والحملة الانجليزية على مصر سنة ١٨٨٢، ثم الحملة الإيطالية على ليبيا ١٩١١، ثم احتلال المغرب سنة ١٩١٢، ثم احتلال العراق وفلسطين ١٩١٨، واحتلال سورية سنة ١٩٢٠، وجملة كبيرة من الأحداث وقعت في أثناء تلك السنين.

ثم إنه بعد احتلال أعداء الإسلام لأكثر بلاد المسلمين سقطت الخلافة العثمانية، ونشأت الجماعات الإسلامية.

ثم تخلصت الدول الإسلامية من محتليها، فيما عُرف بالجلاء، وبقيت فلسطين إلى يوم الناس هذا تحت الاحتلال، وبقيت أجزاء من بعض الدول العربية محتلة في الأردن وسوريا ولبنان والمغرب (سبتة، مليلة) إلى يوم الناس هذا أيضاً.

وفي تلك الحقبة الزمنية الطويلة التي تسمى العصر الحديث: القرن الثالث عشر، الرابع عشر الهجريين/ التاسع عشر، العشرين الميلاديين، في تلك الحقبة برز رجال عظماء، كان لهم أثر ضخم في تلك الأحداث، وبذلوا وقدموا، وعملوا وأعطوا، وهوجموا وابتلوا وصبروا فلم تلن لهم قناة، ولم يؤثر عنهم ضعف ولا ذل ولا هوان.

هؤلاء الرجال يُعدون بالآلاف، لكن أكثرهم ظلت أسماؤهم مجهولة عند أكثر المسلمين، وإن عُرفت الأسماء فقد جُهلت الأعمال، وصار أولئك العظماء الذين كانوا مشاعل هدى في ديارهم وزمانهم معدودين في جملة المجاهيل، فلم تعد الأجيال تسمع بأسمائهم وأفعالهم، بينما كان المأمول أن يُتخذوا قدوات يُقتدى بها، ويرجع إليها، لكن ما الحيلة وأكثر وسائل الإعلام والتثقيف عن أولئك بمعزل.

لذلك رأيت أن أتخير من أولئك العظماء الذين أُسدل عليهم ستار الإهمال والنسيان عدداً ممن حفظ الزمان سيرهم في بطون الكتب لأعرضها على الناس حتى يستفيدوا من العبر والعظات الواردة فيها، وليعرفوا تاريخهم من خلال قراءة تواريخ العظماء، فإن العظماء هم صناع التاريخ حقاً، ومن عداهم إنما هم مشاهدون أو مشاركون -على استحياء- بشيء يسير.

ولقد كنت تكلمت عن جملة من أولئك العظماء في حلقات بُثت من قناة "اقرأ" وسألني عدد من الناس لا أحصيهم من بلاد كثيرة، أن أنقل هذه الحلقات إلى كتب، فكنت لما أسمع ذلك أعهد من نفسي إحجاماً عن هذا العمل، والسبب محصور في أمرين:

الأول: أني كنت قد تكلمت -غالباً- عن سير مشاهير تمتلئ الدنيا بذكرهم فما هي الحاجة لنقل الكلام إلى كتب، ثم إن هؤلاء قد ألفت فيهم كتب كثيرة فما الحاجة لإعادة التأليف؟

الآخر: أن نقل الكلام المُلقى إلى الكتب لهو أمر سهل جداً يستطيعه كل أحد لكن سيكون الكتاب ركيكاً في أسلوبه ضعيفاً مفككاً، وذلك أن المتكلم ربما أعاد بعض الجمل أو الكلمات، أو بتر الكلام لعلة ثم لم يعد إلى السياق الذي كان فيه، أو وهم في موضع من حديثه، أو أتى بالأحداث مختلطة غير مرتبة، أو غير

ذلك من العلل، فإذا نقل الكلام إلى كتاب وهو على تلك الحالة صار المكتوب ركيكاً هزيلاً.

وربما قيل: لم لا يراجع الكلام قبل نقله إلى كتاب وتعالج علله؟

وأقول: قد جربت هذا في حلقات ست هي: عمر المختار، والحسن البصري، وعبدالحميد بن باديس، ومحمد بن عبدالكريم الخطابي، وعبدالعزيز بن باز، وصلاح الدين الأيوبي، ونقل الكلام إلى كتب وأتيت عليها كلها مراجعة وتصحيحاً وضبطاً وتخلصاً من علل الكلام الملقى ارتجالاً وآفاته، وبعد لَأْيٍ أذنت بطبعها لكن لم يرضني أسلوب الكتابة، بل رأيت أنه يخالف ما عرفته من طريقتي وأسلوبي مخالفة بينة، فعزفت عن نقل باقي الحلقات، ولم أرض ذلك الصنيع على أن بعض تلك الرسائل قد كتب له شيء من الانتشار وأعيد طبعه لكني لا أحب لنفسي أن تكون كتابتي على هذا الوجه، فتوقفت عن هذا الصنيع.

ثم إني عمدت إلى أمر وسط، ألا وهو أن أكتب عن من أريد الحديث عنه كتابة مستأنفة ليست منقولة من الكلام المسجل في الحلقات، وهذه الكتابة على قسمين:

قسم تناولت أصله في الحلقات المسجلة، والقسم الآخر إنما هو شيء جديد لم أتحدث عنه من قبل.

فأخذت في كتابة سير بعض الأشخاص الذين كان لهم يد طولى في العمل للإسلام لكنهم صاروا مغمورين في هذا الزمان، وكتبت هذه الحلقات لمجلة "المجتمع" الكويتية، وعمدت إلى بعض الحلقات المسجلة التي نقلت إلى أوراق والتي تكلمت فيها عن بعض أولئك العظماء فأعدت كتابتها ملخصة مهذبة سالمة من العلل التي ذكرتها آنفاً، وجمعت هذه كلها في كتب رأيت أن تخرج على الناس تباعاً، ولم أشأ أن أجمعها كلها في كتاب واحد يعظم حجمه وتتعدد أجزاؤه فيصعب على الناس قراءته،

فإخراجها على هذا الوجه أيسر على الناس، ثم إني لا أعلم متى يأتيني الأجل ويخترم العمر فالتعجيل بإخراج ما تيسر عمله خير من الانتظار حتى يكتمل العمل كله ثم لا ينـــزل منه شيء بعد ذلك، فكم من شيخ وعالم وطالب علم اخترمته المنية فمات وماتت معه أوراقه التي كتبها، وكتبه التي كان قد أعدها لكن لم يطبعها، فالحزم أن يُعجل في إخراج ما انتهُي منه، والله المسؤول بإتمام الباقي.

ـــ هذا وقد أعدت قراءة تلك الحلقات التي أعددتها لمجلة "المجتمع" وأصلحت منها أشياء، وأضفت عليها أشياء رأيتها، حتى رضيتها للناس فأخرجت الجزء الأول من هذه السلسلة التي أرجو من الله تعالى أن يبارك فيها ويعظم لي أجرها، وأن يمد في أجلي لأخرج سائر هذه السلاسل، ولأخرج ما أرى أنه نافع للناس، إن شاء الله تعالى.

هذا وقد اشترطت في هذه التراجم التي كتبتها على نفسي الآتي:

١. الإيجاز، فقد تحقق -عندي- أن هذا الجيل لا يقرأ إلا قليلاً، ولا يقرأ هذا القليل إلا قليلاً، فلذلك عمدت إلى الإيجاز، مع إبراز العبر والعظات.

٢. أن تكون تلك الشخصيات من العصر الحديث الذي يبدأ -عندي- من أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وذلك لأن هذه الشخصيات عاشت في زمن أحواله قريبة من أحوال عصرنا، وأحداثه مشابهة لأحداث زماننا، فذكر هذه الشخصيات -إذن- مفيد لأهل هذا الزمان.

٣. أن تكون هذه الشخصيات قد لحقت بربها؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، واستثنيت الأستاذة مريم جميلة لما في شخصيتها من الجوانب بالغة الأهمية لنساء عصرنا مما لا أكاد أجد مثيلاً

لها في غيرها من النساء غير الشهيرات، ثم إنها الآن في عشر الثمانين وأرجو أن يختم الله لها بخير.

٤. أن يكون أولئك العظماء قد أُسدل عليه ستار النسيان فلم يعد يعرفهم الجمهور الأعظم من الناس، عقوقاً وإهمالاً، فبعث سير هؤلاء من الأمور المهمة جداً لما تنطوي عليه حياتهم من عبر وعظات وتجارب جليلة.

بل أزعم أن هذه الشخصيات التي أوردتها في هذا الكتاب -وسأورد غيرها إن شاء الله تعالى- لم يعد يعرفها الجمهور الأعظم من الدعاة والصالحين والمشايخ وإنا لله وإنا إليه راجعون، وإن عرفوا الأسماء فلا يعرفون الأعمال، وإن عرفوا شيئاً من الأعمال فقد فاتهم جملة مهمة منها.

وإليكم معشر القراء هذه السلسلة التي تحوي تراجم عشراً، وأرجو أن تتبعها سلاسل أخرى يكتب لي فيها كلها أجر إحياء

ذكرها، إذ لا تسألوا معشر القراء عن التعب الذي تعبته في جمع أخبارها المتفرقة خاصة تراجم العظماء من إفريقيا السوداء، لكن الله تعالى هو المستعان، وهو الذي أرجو أن ينيلني على ذلك الأجر والثواب، وإليه سبحانه المرجع والمآب.

وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

الموقع على الشبكة: www.altareekh.com

البريد الالكتروني: mmalshareef@altareekh.com

١ - المجاهـــد البطـــل

أحمد بن عرفان الشهيد

١٢٠١ - ١٢٤٦

١٧٨٧ - ١٨٣١

لله ما أعظم تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند، وكم في تلك الأراضي الشاسعة البعيدة من عظماء، وإذا قيل "الهند" في التاريخ فإنما هي اليوم الهند وباكستان وبنجلاديش بعد التقسيم السياسي الحديث عقب الحرب العالمية الثانية، فهي إذن أرض شاسعة ضخمة، كان للمسلمين فيها أمجاد عظيمة، وقد غربت شمس المسلمين فيها بانتهاء الدولة التيمورية المغولية التي كان من سلاطينها السلطان أورانج زيب

عالمكير، شمس سلاطين المسلمين في أواخر العصر الوسيط وقبل بداية العصر الحديث[1]، فلما سقطت تلك الدولة نهب الإنجليز ممتلكاتها وذهبت أدراج الرياح، وصارت أثراً بعد عين.

وصار المسلمون بعدها كالشياه بدون راع في الليلة المطيرة المظلمة فلم يعد لهم عقد جامع ولا سلطنة كافة، ولا إمام يسوسهم، وانتشرت فيهم البدع والخرافات، حتى أذن الله تعالى ببروز شمس أحمد ابن عرفان الشهيد الذي أحيا في المسلمين في الهند شعيرة الجهاد، وخلصهم من كثير من البدع والخرافات، وكان له أيادٍ بيضاء عليهم.

وهو من أسرة عريقة شريفة، لها صلة بعظماء الهند من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كان لهم جهد ملحوظ في إقامة الشريعة في الهند وتربية المسلمين.

---

(١) كنت قد تحدثت عنه -بفضل الله تعالى- في حلقة في قناة اقرأ، لكن يمنعني من إيراده في هذه السلسلة أنه ليس من أهل العصر الحديث فقد مات في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، رحمه الله رحمة واسعة لكن سيرته من أحسن السير، وتذكّر بسيرة نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح وأمثالهم رحمهم الله تعالى.

ولد في بلدة "راي بريلي" بالقرب من لكنو في الهند سنة ١٢٠١ أول القرن الثالث عشر، وتوفي في وادي بالا كوت شهيداً - إن شاء الله- سنة ١٢٤٦-١٨٣١، وعلى أن عمره قصير لكنه حافل بجلائل الأعمال.

ولد والهند في قبضة الإنجليز يمتصون خيراتها، وينهبون ثرواتها، ويذيقون المسلمين صنوف العذاب، ويضيقون عليهم في مدارسهم ومساجدهم ويمنعونهم من المناصب العالية ويقربون الهندوس منها، بل مالأوا الهنادكة والسيخ في عداوتهم للمسلمين، ومكنوهم من رقابهم، ثم إنه رأى كيف تأثر المسلمون ببدع وخرافات السيخ والهندوس حتى خيف على عقيدتهم منها، وعلى هذا فقد عاش في ظل أحوال صعبة، فماذا صنع رحمه الله ؟

طلب العلم في الكُتاب في صغره، لكن نفسه لم تمل إلى الدراسة فسرعان ما غادر المدرسة، وكانت همته في الجندية وأعمال

الفروسية، والضرب والطعن، والرياضة من سباحة وبناء الجسد، وغير ذلك.

ولما بلغ من العمر عشرين سنة ذهب إلى لكنو ليلتحق بمعسكر للجهاد فيها لكن نفسه كانت تتوق للذهاب إلى دهلي -وليس دلهي التي حرف اسمها الإنجليز- حيث مدرسة آل الدهلوي الذين كان على رأسهم مصلح الهند الكبير شاه ولي الله الدهلوي ولم يدركه لكن أدرك ولديه الذيْن رحبا به أعظم ترحيب لما عرفاه.

فمكث ينهل من العلم والعبادة والزهد والتربية حتى تاقت نفسه للجهاد الذي خلق له، فذهب إلى معسكر النواب -أي نائب السلطنة- ميرخان واجتهد في المعسكر هذا وتعلم ألواناً من فنون القتال، لكن نفسه لم تطب فيه بسبب أن ميرخان كان يقاتل للمغنم وليس له هدف واضح، وقد هادن الإنجليز فانسحب من معسكره.

وأقبل على إفادة الناس ودعوهم إلى الحق، فاستجاب له عدد كبير، وكان منهج دعوته يقوم على إنكار البدع الكثيرة التي كانت في المسلمين بسبب اختلاطهم بالهنادكة، وعلى إرجاع المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وتعليم الجهال أصول دينهم وفروع شريعتهم التي يحتاجون لها، وقد أصلح الله على يديه عشرات الآلاف ممن تاب وأناب، وأسلم على يده من الهنادكة جملة كبيرة.

ثم إنه أعلن في كل أنحاء الهند سنة ١٢٣٦ أنه يريد الحج إلى بيت الله الحرام، وأن من لا زاد له فزاده عليه، فاجتمع عنده عدد متوسط يقدر بأربعمائة حاج.

وكان عدد من المشائخ ممن لاوعي له كافياً ولا فقه في واقع زمانه قد أصدر فتاوى بإسقاط الحج عن مسلمي الهند بدعوى عدم الاستطاعة بسبب أخطار الطريق، وفاتهم أن الحج قد قام به ملايين من

الهنود قبل ذلك وفي أحوال مشابهة فلم يضرهم ذلك إلا قليلاً، لكن كان للإنجليز أثر في إصدار عدد من هذه الفتاوى لأنهم -وأمثالهم من المستخربين (المستعمرين)- يحرصون على إبقاء المسلمين بعيداً عن الصلة بإخوانهم عن طريق منعهم من الحج أو التضييق عليهم تضييقاً كبيراً، أو بلبلة المسلمين بنشر شائعات عن أمراض معدية في الحجاز أو أخطار محدقة بالطريق وهكذا حتى لا يحج المسلمون ويتصلوا بإخوانهم.

وانطلق السيد أحمد بن عرفان الشهيد من بلدته راي بريلي بمن اجتمع معه، ومروا في طريقهم بعدد من المدن أقاموا في كل واحدة منها مدة يدعون إلى الله تعالى، ويصلحون بين الناس، ويذكرونهم بالله، حتى تاب آلاف مؤلفة في مرزابور وبنارس وكلكتا وغيرها.

وقد حدث له طرائف في مِرزا بُور فمن ذلك أنهم أرادوا إفراغ حمولة الباخرة فتأخر الحمالون، وكان من العيب أن يباشر

الأشراف والوجهاء والأغنياء الذين رافقوا السيد في الحملة العمل بأنفسهم فشجعهم وابتدأ العمل بنفسه، وأنزلوا حمولة المراكب والناس ينظرون إليهم في دهشة لأن هذا لم يكن معتاداً في الهند، ولما رأى الحمارون -أي سائقو الحمير- ذلك التواضع دعوا السيد أحمد إلى بلدهم فأجابهم، وكان ذلك صدمة للأغنياء والوجهاء والأشراف الذين رجوه ألا يصنع، وأن مؤاكلة الحمارين عيب كبير لكنه بين لهم أن هؤلاء يقومون بخدمة جيدة، وأن الأنبياء كانوا يركبون الحمير فأي ضير في إجابة دعوتهم ؟! وحضر وليمتهم فأثابوه بعدها بأموال وهدايا فرفض أن يأخذ منها شيئاً حتى لا يظن الناس أنه إنما صنع ذلك للدنيا.

وهكذا كان رحمه الله يغير التقاليد البالية بنفسه، حتى أنه لما تزوج أرملة أخيه إسحق قام عليه الأشراف؛ وذلك لأن المسلمين في الهند تأثروا بالهنادكة في عدم التزوج من الأرامل، فأبطل هذه السنة السيئة بنفسه رحمه الله.

وفي كلكتا تأخر ركب الحج قليلاً لإنجاز إجراءات السفر، فاستغل السيد ذلك ودعا إلى الله هو ومشايخ معه حتى تاب على أيديهم ألوف، وتركوا معاقرة الخمر التي كانت شائعة حتى أغلقت كثير من الحانات، وكسد سوق الخمر فجاء تجارها إلى الحاكم الإنجليزي يطلبون منه إسقاط الضرائب عن الخمور لكساد سوقها فوافقهم لكن إلى حين خروج أحمد بن عرفان من كلكتا !!

وفي أثناء تنقله من مدينة إلى مدينة جاءه وفد من مسلمي التبت فقراء يريدون الحج معه فقال لهم: أنتم لا تستطيعون لفقركم ودلهم على خير من ذلك ألا وهو الرجوع إلى التبت للدعوة، فأخبروه أنهم جهال فعقد لهم دورة شرعية وإيمانية عادوا على إثرها دعاة، وجوبهوا في التبت بمحن وشدائد لكن في النهاية انساق كثير من الناس لدعوتهم، وانصلح حالهم، وأسلم من أسلم، وانتقلت الدعوة من التبت إلى الصين، وكان في مشورة ابن عرفان الخير الكثير.

ثم تحرك الركب من كلكتا إلى الحجاز للحج فأدوا المناسك وعادوا فرحين، وامتدت مدة غيابهم قرابة ثلاث سنين بسبب وقوفهم في أماكن عديدة للدعوة وتربية الناس وهدايتهم مدداً طويلة نسبياً، وأعاد الله بهذا الحج الثقة للمسلمين بسلامة درب الحج، وحصل خير عظيم، ولله الحمد والمنة.

ثم إنه لما عاد من رحلة الحج سنة ١٢٣٩ أخذ في دعوة الناس -كعادته هو ومن معه- لكن نفسه تاقت للجهاد خاصة أنه وصلت إلى مسامعه أنباء المجازر التي يقيمها السيخ للمسلمين في البنجاب، فأعد العدة ونادى في ربوع الهند بالجهاد في سبيل الله، واشتاقت النفوس، وسابق الأبناء الآباء، وتحرك بركبه يريد بلاد الأفغان يستنصرهم لكنه وجد من بعض أمرائهم صدوداً فعاد في رحلة شاقة جداً إلى بشاور، واصطدم مع السيخ في معارك انتهت بانتصاره وتأسيس إمارة إسلامية في بشاور، فوطد دعائم الأمن، وجبى الزكاة، وأقام الإسلام حتى تذكر الناس دولة الإسلام الأولى.

وأقام على ذلك أربع سنين تقريباً، لكن خيانة بعض أمراء الأفغان ضيقت عليه حتى أنهم قتلوا القضاة والمشايخ والدعاة الذين أرسلهم السيد أحمد للدعوة في تلك البلاد فكانت صدمة عنيفة له، يضاف إلى هذه الهموم فتاوى مشايخ السوء الذين أفتوا بأنه وهابي، وأن قتاله جائز بل مطلوب، مما جعل عدداً من أتباعه ينفضون عنه، وهاجمه أمراء من الأفغان، فعزم على ترك بشاور واتجه إلى البنجاب وقاتل السيخ بزعامة قائدهم رنجيت سيخ وانتصر عليهم.

لكن المؤامرات ضده كانت مستمرة، فعقد العزم على التوجه إلى كشمير حيث دعاه أمراؤها ووعدوه النصرة، فخرج من البنجاب في طريق محفوفة بالمخاطر، واتجه إلى كشمير لكن خانه بعض جنده المسلمين ودلوا السيخ على قافلته فهاجموها في وادي بالاكوت في ذي القعدة من سنة ١٢٤٦/١٨٣١، وقاتل هو ومن معه قتال الأبطال حتى استشهد وهو لابس كفنه، مقبل على ربه هو ورفيق دربه الشيخ

إسماعيل بن عبدالغني بن شاه ولي الله الدهلوي وعدد من أمرائه وجنده، بعد أن هجم عليهم السيخ بجنود كثيرين.

واعتصم من بقي من جنده بالجبال، وواصلوا الجهاد في أحوال صعبة جداً وبرد شديد وجوع وتعب لكنهم صبروا وثبتوا سنوات حتى قضى على جهادهم الإنجليز، وحاكموهم محاكمات طويلة أظهروا فيها ضروباً من الثبات وصنوفاً من العزة، ما كانت لتخطر على بال أعدائهم، ولقد كان الواحد منهم يقدم على الإعدام أو السجن المؤبد راضياً صابراً ثابتاً، مما يدل على تربية أصيلة، وفهم جليل، وإقبال على الله وتجرد وإخلاص، نحسبهم كذلك والله حسيبهم.

هذا ومن أراد الاستزادة من الاستفادة، فليقرأ الكتاب الفذ الذي ألفه الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى وغفر له: "إذا هبت ريح الإيمان" فمن قرأه مقبلاً بعقله وقلبه يُرجى أن تهب

ريحه، وأن يعظم عمله، وأن يقتدي بفعال ذلك المجاهد الكبير، الذي حركه الله للعمل في وقت مات فيه الأمل، واضمحل العمل إلا من قليل كان منهم ذلك المجاهد الفذ والبطل العملاق.

تلك كانت دعوة أحمد بن عرفان الشهيد: جهاد باللسان تَوّجه بجهاد بالسنان، وهداية وإرشاد، وتربية وتعليم، ونقض العادات السيئة وإبطالها، وإعزاز للمسلمين، وبث للثقة في قلوبهم، وصبر على مشاق الطريق، وتضحية بالنفس والنفيس، فلو لم يكن له بعد ذلك من هذا كله إلا تثبيت رحلة الحج واستمرارها، وجهاد السيخ الذين كان من ورائهم الإنجليز، وهداية عشرات الآلاف من المسلمين والهندوس على يده، لو لم يكن له إلا ذلك لكفاه، فكيف وقد أضاف إليه ما ذكرته، فرحمه الله رحمة واسعة، وتقبله في الشهداء.

٢ - المجاهــد الداعيــة

عثمان بن فــودي

١١٦٨ - ١٢٣٢

١٧٥٤ - ١٨١٧

الحديث عن هذه الشخصية حديث ذو شجون، فهو حديث عن داعية، وعن عالم، وعن مجاهد، وليس عن مجاهد فقط بل مجاهد أقام دولة قوية، ومن ناحية أخرى يتطرق الحديث إلى دولة السودان الإسلامية التي تكونت في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، في زمن كانت فيه الدولة الإسلامية الأم -الدولة العثمانية- تجنح إلى الضعف والركود، وسائر الدول الأخرى كانت قد سلكت

الطريق الذي سيؤدي بها إلى التفكك والزوال، إذاً إن الزمن الذي نشأت فيه هذه الدولة وعوامل تكوينها قد غاير تماماً ما كان سائداً في العالم الإسلامي آنذاك من الضعف والتهاوي.

والشيخ عثمان بن فودي من إفريقيا السوداء، وأعلام تلك البلاد هم كالمجاهيل في عصرنا لقلة المصادر التي تحكى سيرهم، ولصعوبة الوصول إلى قول فصل محايد في بعض الأحداث التي تتعلق بهم.

وعثمان بن فودي من أصول فُلاّنية –فلاتية- نزح جده الحادي عشر موسى جُقّل من غرب إفريقيا في هجرات متتابعة للفُلاّن يريدون الحجاز، ولأسباب غير معلومة توقف جده ومعه جماعته في بلاد الهوسا -نيجيريا اليوم- وجده من بطن من الفُلاّن يسمون بالتوروبي، وبلغة الهوسا تُورِنْكاوا، وكان استقرار جده في تلك البلاد في القرن الحادي عشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

ولد الشيخ عثمان -كما كان يلقب- سنة ١١٦٨ أو ١١٦٩- ١٧٥٤م، في مملكة جُوبَرا إحدى ممالك بلاد الهوسا آنذاك وأقواها، ونشأ بين والدين صالحين وأخذ عنهما طرفاً من العلوم، ودرس الفقه والعقيدة والحديث واللغة على مشايخ الهوسا والبرنو والفلاته ليس بينهم عربي واحد، وهذا من نعمة الله على تلك البلاد في ذلك الزمان أن جعل العلم الشرعي منتشراً بين أهل البلاد أنفسهم، وبرع في العلوم ومهر، وتقدم ونبغ حتى صار مجتهداً في المذهب المالكي السائد آنذاك في كل إفريقيا الشمالية والوسطى والغربية والشرقية، وهو ما يسمونه بالمجتهد النسبي وليس المطلق.

وتسامع به الناس، وأقبلوا على دروسه اليومية، ووعظه الأسبوعي، حتى صار له أتباع سُموا بالجماعة، وصار هو يلقب بالشيخ، وصار علماً عليه حتى أن أبابكر غومي أقضى قضاة نيجيريا ذكر في سنة ١٩٦٣/١٣٨٣ أن الناس في نيجيريا إذا ولد لهم ذكر وسموه بعثمان فإنهم يلقبونه بالشيخ تيمناً بالشيخ عثمان بن فودي.

حال الإسلام في بلاد الهوسا آنذاك:

بلاد السودان كانت تطلق على بلاد شاسعة تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي فيما كان يعرف بالسودان الشرقي والأوسط والغربي، ودوله اليوم: السودان وتشاد ونيجيريا والنيجر ومالي والسنغال تقريباً وجزء من الكاميرون.

وقد دخل الإسلام إلى بعض تلك البلاد منذ القرن الأول، لكن الانتشار والتمكين كان في القرن الخامس يوم أن دخل المرابطون من مراكش إلى السودان الغربي وأنشأوا مملكة مالي، وانتقل الإسلام -أيضاً- عن طريق التجار المسلمين من شمال إفريقيا وكانوا من البربر الصنهاجيين، وانتشر الإسلام بجهود الطوارق أيضاً، فاستنارت المنطقة بنور الإسلام منذ ألف سنة تقريباً.

وفي زمن الشيخ عثمان كان الناس على ثلاثة أقسام: قسم مسلمون، وقسم وثنيون، وقسم خلطوا بين الإسلام والوثنية، فكان

لابد له من معالجة هذا الأمر، فكانت طريقته في دعوته ووعظه على الوجه التالي:

١. تعليم العامة أصول الدين وإبعادهم عن البدع الكثيرة المنتشرة آنذاك.
٢. مجالس الوعظ الأسبوعية التي كان يعقدها.
٣. تعليم العامة أمور دينهم من صلاة وزكاة وغيرها ونهيهم عن المنكرات والمعاصي.

وكان الناس يتقاطرون عليه رجالاً ونساءً، وكانت النساء قبله ليس لهن حظ في وعظ ولا درس، فشجع الرجال على إحضار نسائهم حتى يستفدن ويفقهن، وكان حضور النساء مدخلاً لأعدائه ليشنعوا عليه بدعوى أنه يخلط الرجال بالنساء.

وكانت صفاته الشخصية مؤهلة له لأمر عظيم، فقد كان صاحب همة عالية، كثير التجوال في أنحاء بلاد الهوسا لإيصال الدعوة حتى أنه مكث مرة في إحدى النواحي خمس سنوات بعيداً عن وطنه

من أجل تعليم الناس وإرشادهم، وهذه تضحيات جليلة لا يقدر عليها إلا عظماء الرجال، وكان لا يكل ولا يمل من كثرة الدروس وطولها، مثابراً على إلقاء المحاضرات مثابرة تدل على استعداده الكبير للبذل والتضحية.

ومن صفاته العظيمة إخلاصه وحسن صلته بالله، فقد أخبر ابنه والخليفة من بعده محمد بَلُّو أن أباه كان إذا أراد الخروج للناس اعتزل في ناحية وتكلم بكلام لا يفهمه فسأله فقال: يابني إني إذا أردت الخروج للدرس أو الوعظ سألت الله أن يسددني وأن يفهم الناس عني، وأجدد النية، وأعقد العزم على الإخلاص، وهذا منه —رحمه الله تعالى- فهم جليل وعمل صائب.

جهاده:

قد وفق الله هذا العالم لجهاد طويل مرير، وكان سبب ذلك أن سلطان جُوبَرا: باواجن غَوْزُو دعاه في عيد الأضحى مع مجموعة

من العلماء، وأهداهم هدايا كثيرة فرفضها الشيخ عثمان، وطلب من السلطان خمسة أمور: ١- الحرية في الدعوة إلى الإسلام والوعظ. ٢- رفع الضرائب الثقيلة عن الشعب. ٣-الإفراج عن المعتقلين السياسيين. ٤- احترام العلماء. ٥-ألا يمنع من رغب من رعاياه في الانضمام إلى الشيخ عثمان.

فاستجاب له السلطان، وجعله مفتياً لبلده.

ثم إنه خوفه بعض علماء السوء من جماعة الشيخ عثمان وازدياد عددها فضيق عليه وحاول قتله لكن الله تعالى نجى الشيخ عثمان، ثم مالبث باواجن أن مات وجاء من بعده ابنه نافتا الذي استمر على منهج أبيه في التضييق على الشيخ.

ثم جاء بعده ابنه يُونْفا الذي كان من تلامذة الشيخ لكنه انقلب عليه، وأمر في سلطنته بثلاثة أوامر:

١- ألا يعظ إلا الشيخ.

٢- ألا يتعمم الرجال ولا تختمر النساء.

٣- أن كل من أسلم ولم يكن الإسلام دين آبائه وأجداده فيرتد إلى ما كان عليه !! وكانت هذه الأخيرة قاصمة الظهر التي لا يُصبر عليها، فأعلن الشيخ عثمان لجماعته وجوب الخروج من مملكة يونفا هذا وفعلاً خرجوا إلى ولاية أخرى وكان عددهم خمسة آلاف، وانضم إليهم مثلهم فصاروا عشرة آلاف، وسأل الله تعالى أن يريه دولة الإسلام في البلاد السودانية.

وهنا صار يونفا يضيق على الخارجين إلى الشيخ عثمان بأنواع من التضييق حتى انتهى الأمر إلى إعلان الشيخ عثمان وجوب جهاد يونفا وإيقاف مظالمه، وبايعه جماعته على الجهاد واستعدوا بالسلاح فهجم عليه يونفا بجيشه فهزمه الله هزيمة منكرة واستولت الجماعة على بلاده.

ثم إن سلاطين الهوسا تسامعوا بقوة جماعة الشيخ عثمان فضايقوا من كان منهم في بلادهم، وأعلن بعضهم الحرب على الجماعة، فابتدأت سلسلة طويلة صعبة من المعارك انتهت باستيلاء الشيخ وجماعته على كل بلاد الهوسا وأجزاء من بلاد الكاميرون الآن، وأجزاء من تشاد، وأسسوا دولة ضخمة مساحتها تقريباً ١٥٠ ألف ميل، وسكانها قرابة عشرين مليوناً، وبويع الشيخ عثمان خليفة على هذه الدولة التي سميت بمملكة سوكوتو الإسلامية، وكانت هذه سابقة في تاريخ الدعوات الإسلامية الحديثة.

وعين الشيخ عثمان ابنه العالم محمداً بَلُّو أميراً عاماً على شرق البلاد، وأخاه العالم عبدالله على غربها، وقسم بلاده إلى ثلاثين ولاية، وجعل عليها أمراء من أتباعه.

وفي ذلك الوقت برز خلاف بين عبدالله وأخيه الشيخ عثمان في جملة أمور منها: مسألة لبس الأمراء الملابس التي فيها ذهب وحرير

مما غنموه من أعدائهم لكن ليس على وجه الاستدامة بل يلبسونها إظهاراً للفرح ثم يترعونها، ومنها مسألة استعمال الطبول في أفراح الانتصار، ومنها مسألة تصور الأمراء بصورة عظيمة إذا خرجوا إلى رعاياهم، وعدد آخر من المسائل، فأجابه الشيخ عثمان أن عمر رضي الله عنه ألبس سراقة سواري كسرى وتاجه وهي من ذهب ليرى الصحابة تحقق المعجزة النبوية، وهؤلاء الأمراء يلبسون تلك الملابس إظهاراً لنعمة الله ثم يترعونها، وأما المسألة الثانية والثالثة فقد بين له أن البيئة الهوساوية متعلقة بهذه المظاهر ولا تُساس الرعية إلا بها، والأمر فيه خلاف وفيه سعة، وهكذا بين له ما اشتبه عليه في كل المسائل، لكن عبدالله لم يقتنع وأراد الخروج إلى المدينة النبوية المنورة فمنعه أهل كانو وقالوا له إن أخاك بحاجة لمؤازرتك ومساعدتك فبقي.

ثم إن الشيخ عثمان توفي ولم يعين أحداً بعده وكان ذلك في سنة ١٢٣٢/١٨١٧ عن أربع وستين سنة تقريباً، وولى أهل الحل والعقد ابنه محمداً بَلُّو في مكانه، وبَلُّو بلغة الفُلاّني هو المعين والمساعد،

وقد رضي بذلك عمه عبدالله بعد تمنع وبايعه، واستقر الأمر لمحمد الذي حكم قرابة إحدى وعشرين سنة واشتهر باسم أمير المؤمنين.

ثم توفي سنة ١٢٥٣، ثم جاء بعده ابنه، ومن ثم حفيده، وبقيت الدولة مائة عام من سنة ١٨٠٣ إلى ١٩٠٣ حيث أسقطها الإنجليز سنة ١٩٠٣ في عهد الطاهر أحد أحفاد الشيخ عثمان.

آثار دعوة الشيخ عثمان:

١. القضاء على الوثنية في كل السودان تقريباً، والسودان الذي أعنيه هنا هو السودان التاريخي من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي كما بينت سابقاً، وهذا إنجاز ضخم جداً.
٢. أعاد كثيراً من الناس إلى حظيرة الشرع والالتزام بالإسلام قولاً وعملاً واعتقاداً، وقضى على كثير من البدع.
٣. أنشأ دولة قوية مترامية الأطراف يهابها أعداء الإسلام، واستمرت شامخة مائة عام، ووضع لها دستوراً محكماً قوياً.

٤. أنتجت دعوة الشيخ عثمان نتاجاً ثقافياً ضخماً، فقد ترك مائة وأربعين مؤلفاً تقريباً في الجوانب العقدية والسياسية والاقتصادية والفقهية وغيرها، وتخرج على يديه مائة عالم مجتهد في المذهب المالكي، وهذا منه عمل عظيم على كثرة مشاغله وتشعب اهتماماته.

٥. ضبط مسألة الغلو في التكفير، وألف خمسين مؤلفاً تقريباً في الرد على من ذهب إلى التكفير بالمعصية ومن ضمنهم شيخه الأثير جبريل بن عمر الذي أحبه كثيراً حتى قال فيه:

إن قيل فيّ بحسن الظن ما قيلا　　　فأنا موجة من أمواج جبريلا

٦. حرر دارفور من الوثنية، ولذلك قصة عجيبة، وذلك أنه قبل أن يموت وصى أتباعه أنه إذا ظهر مهدي السودان فلينصره الفُلاّن ــ الفلاته ــ وكان هذا كرامة له، إذ بعد موته بمدة طويلة ظهر المهدي في السودان، ونصره الفُلان بالهجرة إليه خاصة بعد ضعف دولتهم، واستقروا في وادي النيل ودارفور.

ويقول رئيس السودان السابق إسماعيل الأزهري للشيخ عمر محمد فلاته المجاور في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدرس بحرمها الشريف: لولا أن الفُلان سكنوا دارفور لتحولت المنطقة إلى الوثنية كما حصل في جنوب السودان.

وقد كان المهدي السوداني يحب هؤلاء الفلاته حباً جماً، وتزوج منهم، وكان خليفته عبدالله التعايشي منهم، رحمهم الله تعالى.

وفي النهاية أقول:

إن هذه الثمرات الجليلة كانت لداعية عظيم، نصر الله تعالى به الدين في تلك البلاد، وقضى على كثير من البدع، وحمى الناس من الوثنية، وجمع بين العلم والدعوة والجهاد ورئاسة الدولة على وجه مبدع جليل، وهو أمر جديد على دعاة العصر الحديث، وصدق الله تعالى:M p q r s t v w x y L .

٣ـ المجاهد الداغستاني

الإمـــام شامـــل

١٢١٢ - ١٢٨٨

١٧٩٧ - ١٨٧١

هو مجاهد من المجاهدين العظام في زمن اشتدت فيه حاجتنا إلى المجاهدين العظماء، تعرض للشهادة في مواطنها، وأبى إلا أن يغترف من كأسها الطاهر المطهر، لكنه مات على فراشه بعد ملحمة طويلة، ومعارك جليلة أذاق فيها الروس القياصرة الذل والهوان، وهزموا أمامه مراراً، هذا وروسيا آنذاك من القوى العالمية في الطبقة الأولى، وكانت

في أوج عنفوانها وغطرستها، قد هزمت نابليون وتقدمت حتى دخلت باريس سنة ١٨١٦ !!

والإمام شامل من داغستان، ولد في قرية منها سنة ١٢١٢/١٧٩٧، ونشأ فيها نشأة الأبطال الفرسان على أنه درس بعض العلوم على مشايخ من بلاده.

وداغستان جزء من منطقة القوقاز الشمالي الذي يضم معها الشيشان والانجوش وأوسيتيا، وهذه المنطقة مواجهة تماماً للروس، وهناك القوقاز الأوسط الذي هو جمهورية جورجيا الآن وكانت تعرف عند المسلمين بالكرج، وهناك القوقاز الجنوبي الذي فيه أذربيجان وأرمينيا.

والقوقاز غزاه المسلمون الأوائل وثبتوا في جنوبه وفي مناطق في شمال غربه، لكن لوعورة المنطقة ولكثرة طوائف وأديان ومذاهب أهلها لم يستطع المسلمون أن يتحركوا شمالاً، وغاية ما فعلوه أن سراقة

بن عمرو الذي كان في زمن الخليفة الأموي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية استطاع دخول تفليس (تبليس، عاصمة جورجيا اليوم).

ثم إن التتار ورأسهم تيمورلنك في مرحلة تحولهم إلى الإسلام نشروا الإسلام في أجزاء من الشيشان والداغستان وأنجوش.

ثم أرسلت الدولة العثمانية في مرحلة متأخرة نسبياً دعاة إلى الشيشان وأقنعوا جماعات من الشيشانيين بالتحول إلى الإسلام بعد أن كانوا وثنيين وكان هذا من قرابة ثلاثة قرون من الآن، وكان ذاك عملاً رائعاً في منطقة وعرة ضخمة بها أشجار بلوط ضخمة يبلغ ارتفاع بعضها مائتين وثمانين قدماً ومحيطها خمسة وثلاثين قدماً !! والمنطقة مليئة بهذه الأشجار، وبها جبال وعرة مما يصعب أي عمل عسكري فيها، وهذا من فضل الله على أولئك الدعاة.

ومنذ أن دخل الشيشانيون إلى الإسلام عمدوا إلى الدفاع عن الإسلام ورفع لوائه إلى يوم الناس هذا، ولم تفلح معهم كل محاولات التغريب والتنصير، وهناك شعوب دخلت قبلهم في الإسلام لكنها أجبرت على التحول إلى النصرانية عندما اجتاح بلادهم الروس القياصرة مثل شعب الكرج (جورجيا) التي دخلها الإسلام منذ عصر التابعين، لكن الشيشانيين ثبتوا ولله الحمد.

وعظماء القوقاز -منذ دخلها الإسلام إلى هذا العصر- جملة وافرة، وعدد هائل لكن أين تراجمهم؟ وما لنا لا نعرف منهم إلا أفراداً معدودين على أصابع اليد الواحدة؟ أهذا جزاء أولئك العظماء؟ لكن يبدوا أنه قد اجتمع عليهم إهمال المسلمين وقلة اكتراثهم مع عوامل الخراب التي مرت على المنطقة فأفنت تواريخها وجهّلت أهلها.

كان لشامل صاحب يكبره بخمس سنوات يسمى غازي محمد ملا، وكان رفيق دربه، فكانا يدرسان معاً على المشايخ، ويدوران

على المساجد، وابتدآ الجهاد معاً، وكان لبدء الجهاد سبب مؤثر وهو أن غازي ملا رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات وهو يدعوه للجهاد ضد الروس.

والروس آنذاك هم الذين ابتدأوا بالاعتداء حيث كانت القيصرة كاترين تملكهم فأرسلت الجيوش إلى تلك المناطق، وتتابع القياصرة من بعدها على إرسال الجيوش.

ولابتداء الضعف في الدولة العثمانية آنذاك -قبل قرابة مائتين وخمسين سنة من الآن- استطاع القياصرة أن يثبتوا احتلالهم لبعض المناطق هناك، وإضافة إلى ابتداء الضعف في الدولة العثمانية كان هناك انعدام في تنسيق المواقف بينها وبين الدولة الصفوية في إيران بسبب تشيعها، وكان هناك دولة قبرطاي الإسلامية وهم من الشراكسة ولم ينسقوا أيضاً مع الحركة الجهادية ضد الروس، فأدى كل ذلك إلى احتلال الروس بعض المناطق في القوقاز، وكان سائر العالم الإسلامي يغط في نوم عميق أو مشغولاً بمشكلاته الداخلية.

تقدمت الدولة الروسية لتحتل القوقاز وكان يدفعها سببان رئيسان: أولاهما أن القوقاز طريق إلى التركستان فإذا أخذوا القوقاز سهل عليهم الاستيلاء على التركستان، ومن ثم يتقدمون لأخذ الهند من المغول المسلمين –وهذا هو الدافع الآخر- وفعلاً ما إن أسقطوا دولة شامل إلا ودخلوا طشقند عاصمة أوزبكستان إحدى جمهوريات التركستان، ولم يستغرق منهم هذا سوى سنة واحدة فقط بعد سقوط القوقاز.

لما رأى غازي محمد ملا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثلاث مرات يأمره ببدء الجهاد تحدث إلى الداغستانيين بهذا فأجابوه وجاهد الروس ثلاث سنوات من سنة ١٨٢٩، ثم حوصر في بلدته غمري هو وشامل ومن معهما، فقتل غازي محمد ملا، وهرب شامل.

ثم إن شاملاً استطاع أن يجمع فلول الداغستانيين ويبتدئ الجهاد ضد الروس سنة ١٨٣٤ إلى سنة ١٨٣٩، وفي تلك السنة دل

عليه بعض أمراء الداغستان الخونة وحاصره الروس بقوة ضخمة فيها مدافع لم يكن يملك الداغستانيون شيئاً حيالها حيث كان الروس يدكون البيوت بها دكاً، لكن شاملاً استطاع الهرب أيضاً.

وبعد تفكير ومراجعة لأحواله في ظل خيانة أمراء الداغستان قرر التوجه إلى الشيشان، وهو معقل حصين جبلي كان أهله أقوى إيماناً من الداغستانيين وأوفى ذمة، وطبيعة الشعب الشيشاني الصعبة لا تسمح لهم بأن يرضخ بعضهم لبعض فكانوا بحاجة لرجل غريب يُسلسون له قيادهم فكان هذا هو الإمام شامل الذي استطاع أن يصل إلى القسم الجبلي من الشيشان، وجمع حوله فلول أتباعه من الداغستانيين الذين انهزموا من الروس، وبايعه أمراء الشيشان وقبائلهم، وأعلنوه إماماً عليهم له حق السمع والطاعة والجهاد معه في سبيل الله تعالى.

لما سمع القيصر بهروب شامل وما صنعه في الشيشان استشاط غضباً وطلب من قائده حسم المعركة مع شامل، فأرسل الجيوش إلى

الشيشان وعلى رأسها أعظم القادة وأكثرهم خبرة في الحروب مع الداغستانيين ومع نابليون، وقاومهم شامل ومن معه حتى اضطر القيصر لإرسال حملة عرفت بحملة دارجو وهي البلدة التي كان يتحصن فيها شامل وأمراؤه، وكان حولها غابات كثيفة جداً، وكان قائد الحملة يسمى جراد لكنه لم يتمكن من الوصول إلى دارجو حيث كمن له جيش شامل على أشجار البلوط الضخمة التي سبق وصفها، فكان فوق كل شجرة ٤٠ — ٥٠ من العساكر وكانوا يسكبون الزيت المغلي على الروس، ويرموهم بالحراب والبنادق فحصدوا كثيراً منهم وفشلت الحملة وعادت أدراجها بعد خسائر ثقيلة.

ثم جرت مناوشات بين شامل وجراد متفرقة.

وبعد ثلاث سنوات في سنة ١٨٤٥ أرسل القيصر حملة ضخمة قوامها ثلاثون ألف رجل بقيادة ضابط روسي فذّ اسمه روندسوف، فمكر به شامل حيث جعله يتقدم في الأدغال إلى أن وصل إلى البلدة التي كان يتحصن بها شامل، وترك فيها مجموعات

قليلة لمقاومة روندسوف الذي تغلب عليها، وسوّى بيوت البلد بالأرض بمدفعيته الضخمة، وفي طريق عودته وكان فرحاً مسروراً بما صنع كان الشيشانيون ينتظرون جيشه في الليل فانقضوا عليه كالأسود، وقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفاً فلم ينج إلا خمسة آلاف نصفهم جرحى، وقتل قواد روس كبار في المعركة.

ـــ قد كان شامل ومن معه من الصوفية النقشبندية الذين اشتهروا بالجهاد، وهي من أصفى الفرق الصوفية ومن أقلها بدعاً، وكان شامل ومن معه يسمون أنفسهم بالحركة المريدية، وكانت أصول الحركة المريدية تقوم على الشدة والقوة والفروسية وعلى الأذكار والأوراد، ووضع شامل لجيشه نشيداً جهادياً جميلاً ينشدونه في معاركهم، وقد وصفتهم الكاتبة الأمريكية ليزا في كتابها: "سيوف الجنة" وقالت فيه: إن الشيشانيين كانوا يتقدمون للمعارك مع الروس وهم يرتلون القرآن الكريم، وينشدون أنشودة الموت التي تبعث فيهم الحماس والقوة.

بعد حملة دارجو الثانية عمد الروس إلى خطة ماكرة حيث لاينوا أمراء الشيشان ورعاهم، وأمراء الداغستان فكانوا إذا أمسكوا بهم يطلقونهم ويكافئونهم بالأموال، وكانوا في المقابل يقسون على المجاهدين جداً، وبهذا الصنيع تأثر كثير من عامة الشيشانيين والداغستانيين، وكان هذا من أوائل بوادر الإخفاق الذي حدث لشامل بعد ذلك.

ارتكب شامل أخطاء عديدة، فقد كان رجلاً عسكرياً قوياً، شديد الشكيمة، صعب المراس، فكان يقسو أحياناً على أتباعه ويفرض حركته المريدية على الشيشانيين، فكان هذا يوجد نوعاً من التململ، فهذا خطأه الأول.

وثاني أخطائه الكبيرة أنه كان هناك رجل داغستاني اسمه مراد عدو لشامل في الداغستان فأصلح بينهما الشيشانيون وصار نائباً لشامل في الداغستان، وكانت هناك طائفة من أمراء الداغستان حسدة

لمراد فأوغروا صدر شامل عليه وأقنعوه أن يولي ابنه غازي محمداً ولاية العهد من بعده ففعل شامل وأخذ البيعة من الأمراء الشيشانيين والداغستانيين، وهذا الأمر أغضب الحاج مراد جداً فاستقل عن شامل والتحق بالروس، وهذه خيانة كبيرة لكن الحسد والحقد الذين استوليا على مراد وسوء التصرف من شامل أدى بمراد إلى هذا الذي صنعه، على أن الروس بعد ذلك غدروا به وسجنوه ثم قتلوه، وهي نهاية أليمة لرجل دوخ الروس عشر سنوات وكان له عمل جهادي جيد لكن أعوذ بالله من الحقد والحسد.

قسم شامل حركته المريدية تقسيماً بارعاً فكان له مائة نائب وألف مرشد ينتشرون في القوقاز الشمالي، وكان الحاج مراد أحد النواب الكبار والساعد الأيمن لشامل الذي فقده في وقت كان في أمس الحاجة إليه.

استمر المد والجزر بين شامل والروس سنوات طويلة، وقتل منهم جنوداً وقادة كثيرين، وهذا يعد عملاً رائعاً بالنسبة لقوة

الشيشان الصغيرة أمام جحافل الروس لكنه الإيمان الذي يصنع العجائب.

ومن المعارك التي تستحق الذكر -أيضاً- أن الروس أرسلوا ولي عهد القيصر في جيش فيه كبار القادة وثلاثون ألف جندي، كل هؤلاء توجهوا إلى بلدة صغيرة، فغطى الشيشان أبواب بيوتهم ونوافذهم بالطين فصارت البيوت كتلة واحدة، وغيروا سقوف بيوتهم إلى سقوف خفيفة رقيقة وغطوها بالتراب لتبدو كأنها هي السقوف الأصلية، فكان الروس يقفزون فوق السقوف فيقعون في البيوت ليجدوا الشيشانيين المريدين أو المجاهدين في انتظارهم فيعملون فيهم ذبحاً وقتلاً، فرجع الجيش خائباً خاسراً بسبب هذه الحيلة الذكية.

لكن شاملاً لم يكن يستطيع أن يصمد أمام هذه الحملات المتتابعة أكثر مما صمد، فقد بقي في الجهاد قرابة ثلاثين عاماً، لذا كانت نهاية قصة الجهاد العظيمة هذه أن استسلم للروس بعد أن حوصر في خمسمائة من أتباعه فقط من قبل جيش يقدر بأربعين ألف

جندي، لأنه رأى أن حقن دماء من بقي من أتباعه أولى له بعد أنه خانه عدد من أمراء الداغستان وخانته دولة الشراكسة القبرطاي، وسلم نفسه للروس سنة ١٨٥٩ -بعد ممانعة كبيرة من بعض أتباعه- فأخذوه إلى روسيا فبقي فيها مكرماً تسع سنوات من قبل القيصر والقادة.

ثم طلب من القيصر أن يسمح له بالحج فوافق بعد تردد، فرافقته حملة روسية إلى أن خرج من حدودهم، فحج ثم نزل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقر فيها مجاوراً ثلاث سنوات ثم انتقل إلى جوار ربه سنة ١٨٧١ بعد جهاد دام قرابة ثلاثين سنة، ووقف صخرة شماء أمام أطماع القياصرة ونواياهم التوسعية في المنطقة القوقازية والتركستانية.

وكان من أهم أسباب إخفاق الحركة الجهادية المريدية الشاملية خيانات عدد من أمراء الداغستان، وقسوة شامل على أتباعه

في بعض الأحيان وعلى سائر الشيشانيين فانفض عنه كثير منهم، وهناك عامل مهم هو عدم تنسيق الدولة العثمانية معه لضعفها آنذاك.

بعد استسلام شامل لم يستسلم الشيشانيون بل قاموا بثورات متتابعة، ثم إنه لما جاءت الدولة البلشفية انتقمت من الشيشانيين فاتهمهم ستالين بمساعدة الألمان فهجر كثيراً منهم، ثم عادوا إلى بلادهم سنة ١٩٥٧ بعد هلاك ستالين، واليوم الشيشانيون ما زالوا يكبدون الروس الخسائر الفادحة، ولم تهنأ روسيا بالشيشان بعد شامل إلى يوم الناس هذا !! لكن الشيشانيين سيهنأون بالنصر قريباً إن شاء الله.

٤ ـ الداعيـــة العجيب

عبد الرشيد إبراهيم

١٢٦٢ - ١٣٦٣

١٨٤٦ - ١٩٤٤

إن الحديث عن هذا الداعية يملأ النفس إيماناً وثقة بنصـــر الله تعالى لعبيده، حيث يرزقهم من آونة إلى أخرى برجال عظماء يعطون للإسلام بلا حدود، ويقدمون عصارة جهدهم ووقتهم وحياتهم لهـــذا الدين، وإذا أردت أن تعرف شيئاً عن أهلهم وأولادهـــم ووظـــائفهم ومناصبهم لم تظفر بشيء ذي بال، وهذا من أجل إخلاصهم ودأبهـــم وعطائهم كل شيء لدينهم فماذا بقي لغيره ؟! فـــالله الله في أمثـــال

هؤلاء، فلابد للأجيال أن تطلع على سيرهم، وتقف على أعمالهم وآثارهم، وتنهل من معين جهادهم وتضحياتهم، والناشئة اليوم لا تعرض عليهم سير العظماء على الوجه الذي ينبغي وتبرأ به الذمة، إنما يعرض لهم كل تافه وتافهة من الرويبضات المسمين نجوماً وأبطالاً، ومن الواجب أن يحاكموا على ما اقترفوه من جرائم وإفساد في الأرض لا أن يكرموا ويرفعوا على رؤوس الأشهاد !!

هذا الداعية الكبير قرمي قازانيّ تتري عاش في روسيا التي استولت قديماً على بلادهم، ولد سنة ١٨٤٦م ببلدة تارا في سيبريا، وطلب العلم على مشايخ في بلاده، ثم لما بلغ من العمر اثنتي عشرة سنة ذهب إلى الحرمين ليمكث في الأراضي الحجازية عشرين سنة يطلب العلم، وليعلن برحلته تلك ابتداء سلسلة من الرحلات الطويلة على مدار تسعين سنة تقريباً !! فأين ارتحل؟ ولماذا؟ وماذا حصل في رحلاته؟

كل هذا كتبه في جزأين نشرا في تركيا قديماً بعنوان "عالم إسلام" وصدق الأستاذ الكبير عبدالوهاب عزام حين قارن بين رحلته تلك المليئة بالفوائد ورحلة ابن بطوطة المليئة بالخرافات والمجد الشخصي والحكايات التي ليس في أكثرها عبرة وعظة مناسبة لأبناء الزمان، ثم تحسر على اختفاء رحلة عبد الرشيد إبراهيم من المكتبات، وامتلائها برحلة ابن بطوطة !! هذا معنى كلامه رحمه الله الذي نقله الأستاذ الأديب محمد رجب البيومي حفظه الله ونفع بعلمه.

وسخر الله اليوم لرحلته هذه الأستاذ الكبير صالح السامرائي العراقي ثم الياباني، فاعتنى بها، وهي في طريقها للخروج إلى القراء بحلة عربية قشيبة إن شاء الله تعالى.

مكث داعيتنا في الحجاز عشرين سنة ينهل من العلوم، ثم عاد إلى روسيا ليدعو إلى الله تعالى، وترامت أخباره إلى أسماع المسلمين فتوافدوا إليه واجتمعوا عليه فضيقت عليه السلطات الروسية القيصرية آنذاك فهرب إلى تركيا.

ولما هزمت اليابان القياصرة الروس وخفت حـــدة ظلمهـــم وانكسرت شوكتهم عاد إلى بلاده ونشر رسائل تدعو إلى الله تعـــالى، وتلقفها الناس وقبلوها.

لكن الأحداث المتتالية في روسيا أوحت إليه بالارتحال، فشد رحاله عازماً الذهاب في رحلة طويلة إلى اليابان ماراً بمنشوريا ومنغوليا والصين وكوريا ثم اليابان، ثم الملايو ولم يكن آنذاك قد حصل التقسيم السياسي لها إلى عدة دول: ماليزيا واندونيسيا وبروناي وسنغافورة، ثم الهند، ثم مر بجزيرة العرب وحج، وارتحل من هناك إلى بـــلاد الشـــام بالقطار العثماني الذي كان قد افتتح قريباً، ثم سار إلى بيروت وارتحل منها إلى اسطنبول، وكان ذلك سنة ١٩٠٧م.

ومن غرائب رحلته -التي فيها عبر وعظات كثيرة جداً- مـــا يلي:

١. مَرّ على كوريا، فوجد الكوريين يعملون حمالين عند الصينيين واليابانيين، ويقضون حاجاتهم في الطرقات، فإذا جاء الليـل أووا إلى حظائر للنوم، فقابل أحد الكوريين في القطار فسـأله عن مستقبل الأمة الكورية، وكان من دأب الشـيخ سـؤال الناس عن مستقبل أممهم، أو أنه هو الذي ينظر في أوضـاع الأمم ويتوقع أحوالاً ستمر بها، فرد الكوري باكياً: نحن أمـة كالبهائم، نحن أمة لا مستقبل لها!!

وقد انتابني مشاعر غريبة وأنا أقرأ هذا في رحلته، فكوريا قبل أقل من مائة عام لم يكن أحد يتوقع لها أن تصل إلى شيء من الحضارة المادية، واليوم كوريا تصل إلى مسـتويات عاليـة في عـالم التقنيـة والإنتاج، وهي أمة صغيرة قليلة بلا تاريخ ولا دين ولا حضارة سابقة، وكدت أبكي وأنا أتذكر أمتي ذات الحضارة العظيمة والتاريخ الرائع، والدين السامي الجليل، والتراث الذي ليس مثله تـراث في الـدنيا، تذكرت كل ذلك وقارنته بما نحن عليه اليوم من تخلف وضعف، وأين حالنا المتردي من حال كوريا، وللمقارنة فقـط أقـول إن بـراءات الاختراع التي ثبتت لكوريا مـن سـنة ١٤٠٠-١٤٢٠/ ١٩٨٠-

٢٠٠٠ كانت قرابة أربع عشرة ألف براءة، أما الدول العربية مجتمعة فكان ما ثبت لها في المدة نفسها قرابة أربعمائة براءة اختراع !! إنا لله وإنا إليه راجعون.

٢. مكث مدة في اليابان، وأعجب بها أيما إعجاب، بنظافتها، وأخلاق أهلها وأدبهم، وحسن استقبالهم للضيف، وصراحتهم وعدم خديعتهم، والنظام الذي يسود حياتهم، والأهم من ذلك كله استعدادهم الكبير للإسلام، وقد استقر ذلك في نفسه بعد مقابلات عديدة لأمراء ووزراء وكبراء.

وهذا الداعية العجيب لم يهدأ في رحلته اليابانية، فقد زار المرافق والسجون والبرلمان، وزار الجامعات والمدارس والمراكز التجارية والبريد والأسواق والجمعيات، واطلع على علوم اليابانيين وحرفهم وطرائق عيشهم وزار الناس على مختلف طبقاتهم، وكان يجلس إليهم، ويتحدث الساعات الطويلة معهم، ويقبل دعوتهم، وهذا شأن الداعية الذي يريد أن يؤثر في العقول والقلوب، وقد حسّن إليهم الإسلام بذكر محاسنه وفضائله، وكان لكل ذلك أثره فيما بعد، وقد أسلم عدد

يسير من اليابانيين في هذه الرحلة الأولى، وتعلم بهمته مـــن اللغـــة في وقت يسير ما استطاع بها أن يتفاهم مع القوم هنالك.

ثم غادر اليابان وفي عزمه الرجوع إليها، وعاد بعد مدة ليقيم فيها إقامة طويلة وليتوفى فيها سنة ١٣٦٤/١٩٤٤ رحمه الله تعالى عن قرابة مائة سنة، وكان من آثار عمله أن اعتـــرف اليابـــان بالـــدين الإسلامي، وأنشئت عدة مساجد فيها، وأسلم عدد من أهلها، وكان له فيها قصة جليلة طويلة أحيل من يريد معرفتها إلى مذكراته، رحمـــه الله تعالى، لكني أجتزئ هذا النص الجليل من ترجمة الأستاذ الـــدكتور محمد رجب البيومي له حيث قال:

"إذا ذهب مصل إلى مسجد الإسلام بطوكيو عجـــب حـــين يرى الرجل الأسطورة في الخامسة والتسعين من عمره ينهض قبـــل شروق الفجر فيقيم صلاة التهجد، ثم يؤم الناس في صلاة الصـــبح، ولا يكاد يفرغ من تسبيحه حتى يتحلق عليه جماعة من حوارييـــه ليشرح لهم سور القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فإذا

أشرقت الشمس انتقل إلى حجرة الدراسة الملحقة بالمسجد ليجد نفراً من صبيان المسلمين يستقبلونه فيقوم لهم بدور المعلم، يكتب لهذا لوحه، ويسمع من ذلك سورته، ثم لا يستنكف أن يكون في هذه السن المتقدمة وبعد هذا الجهاد المتواصل معلم صبيان تُقرأ على يديه مبادئ اللغة العربية ويُحفظ الناشئة قصار السور من جزء عم، وبعض المأثور من حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو من كبار زعماء الإسلام في ثلاثة أجيال ناهزت القرن!!"

٣. كتب بعض القساوسة العاملين في الصين إلى وزارة خارجية بلاده يخبرها أن النصرانية تعاني من جهود عدو يزحف عليها بقوته، فبعثت وزارة الخارجية تسأل عن هذا العدو فإذا بالإجابة المفاجئة أنه عبدالرشيد إبراهيم الذي حقق بعض المكاسب في الصين أمام النصرانية الزاحفة!! هذا وقد دار الرجل في الصين، والتقى ببعض المسلمين فيها، وكانت له جهود هنالك جيدة، فرحمه الله وغفر له.

٤. شارك في حرب طرابلس مع الليبيين ضد الإيطـــاليين الغـــزاة الذين أقبلوا كالجراد المنتشر ينشرون الخـــراب والفســـاد في الأرض، وكان ذلك سنة ١٩١٢، وكان آنذاك قريبـــاً مـــن السبعين من عمره !! لكنه كان من صنف من الرجال عظـــيم لا يقنع بشيء إلا أن يرى انتصار الإسلام وعلو رايته في كل مكان.

٥. ثم ذهب إلى ألمانيا ليكون بجوار أسرى الترك في الحرب العالمية الأولى ليخفف من أحزانهم، ويضمد جراحهم.

٦. كل هذا كان يعمله بقروش قليلة، وقد عانى كثيراً بسبب فقره المدقع، ولم يكن يجد ما يركب به في الباخرة أو القطار أحياناً، وإذا ركب ففي الدرجة الثالثة، وقد ظـــل في ســـبيل نشـــر الإسلام بعيداً عن أهله سنوات طوالاً، فما أعظم هذا الرجـــل وما أحسن سيرته.

هذه شذرات من سيرة هذا الإمام الداعية الكبير الذي بخلت أكثر المصادر بإيراد سيرته، والتعريف بعمله، وهذه علة كـــبيرة في كتـــب وتراجم الرجال المعاصرين وسير حياتهم الجليلة، وأرى -والله أعلـــم-

أن السبب هو قعود همة أكثر الباحثين والمنقبين عـــن التـــراث، وإلا فكيف يُغفل عن عظيم مثل هذا، ألا وإن في رحلته الجليلـــة "عـــالم إسلام" -التي ننتظر خروجها بالعربية بفارغ الصبر- معالم كثيرة مـــن جهاده واجتهاده، وتجرده وإخلاصه، وأقواله وأعماله، وأحسب أنـــه مات يوم مات وهو في ذروة سامقة من العمل والجـــد والاجتـــهاد أحسبه كذلك والله حسيبه ولا أزكي على الله أحداً، فاللـــهم أعـــل درجته، وارفع مترلته، وأسبغ عليه من شآبيب رحمتـــك ومغفرتـــك، وعرف المسلمين بسيرته، وانشر عطر عمله، وأريج كلامه.

٥ـ الأمـــير المجاهـــد

محمد بن عبدالكريم الخطابي

١٣٠١ - ١٣٨٢

١٨٨٣ - ١٩٦٢

قاض شرعي، ومدرس، وصحفي، ومجاهد، وأمير، ورئيس دولة، نعم هذه الصفات اجتمعت كلها في شخصية فريدة هي شخصية الأمير الكبير عبدالكريم الخطابي رحمه الله تعالى، ولئن سألت الناس عنه في زماننا هذا لما عرفه إلا القليل، وهذه مصيبة كبرى من مصائبنا؛ إذ كم للإسلام من أبطال عميت سيرهم على أكثر أهل زماننا هذا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولد في بلدة أَجْدِير في الريف المغربي بين مِلِيْلَة وتطوان سنة ١٣٠١/١٨٨٣ ودرس القرآن والعربية، وذهب لإكمال دراسته، إلى مليلة وجامعة القرويين بفاس، وعاد منها ليعين نائباً للقاضي في مليلة ثم قاضياً ثم صار أقضى القضاة (قاضي القضاة) هذا وعمره آنذاك لم يتجاوز الثالثة والثلاثين، وهذا دليل على نبوغ مبكر، وكتب في الصحف، ودرس في بعض المدارس، وكان أبوه أميراً على البربر الذين في الريف المغربي، وجاهد مع أبيه في الحرب العالمية الأولى مع الدولة العثمانية وذلك سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٥.

واعتقل الاسبان الذين كانت بأيديهم سبتة ومليلة -وهي إلى الآن بأيديهم، وهذه من المصائب التي لا يعرفها أكثر المسلمين- اعتقلوا الخطابي ٤ أشهر ليضغطوا على أبيه حتى يكف عن الجهاد، وذلك أن الاسبان كانوا يريدون أن يتوسعوا ويخرجوا من سبتة ومليلة ليحتلوا باقي مناطق المغرب الأقصى الشمالية، لكنهم لما حققوا مع الابن فاجأهم بألوان من العزة والثبات، وأخبرهم أنه لا مناص له ولا

لأبيه إلا أن يقاتلوا مع الدولة العثمانية، فاضطروا لسجنه لكنه تدلى بحبل من السجن ليفر إلا أن الحبل كان قصيراً فتأرجح في الهواء فرمى بنفسه فانكسرت ساقه وأغمي عليه من الألم فعثر عليه الإسبان فأعادوه إلى السجن حيث مكث أربعة أشهر ثم أطلقوا سراحه.

قتل والده في معركة مع الإسبان سنة ١٩٢٠ وقيل مات مسموماً فالله أعلم بما كان من ذلك.

وابتدأ الأمير محمد سلسلة المعارك مع الإسبان وكان معه أخوه الذي نفي معه فيما بعد، وعمه عبدالسلام، فابتدأهم الأمير بمناوشات أسفرت عن انتصاره وطرد الإسبان من حاميتين مهمتين بل كانت إحداهما ذات موقع استراتيجي فريد، فغضب الإسبان وأرسلوا له جيشاً من ستين ألف جندي وطائرات وعتاد ضخم لكنهم حذروا القائد العام للحملة من قوة الخطابي وبأسه فاستهزأ قائلاً: أنا ذاهب لأمسح حذائي في الريف !! وإسبانيا آنذاك ثالث قوة أوروبية، وهي

وسائر حليفاتها الأوروبيات قد انتصرت في الحرب العالمية الأولى مما جعل زهوها وغرورها يعظم ويتضاعف.

ــ ولما اقتربت الحملة من بلدة أنوال بالريف كمن لها الخطابي في قوة من ثلاثة آلاف فمزق جيش الإسبان تمزيقاً مدهشاً، حيث قتل منهم ما يزيد على ثمانية عشر ألفاً، وأسر الباقي حتى لم يسلم من الجيش سوى ستمائة فقط، وغنم عشرين ألف بندقية، وأربعمائة رشاش ومليون طلقة، وطائرتين !! وتفرق القتلى على مساحة خمسة أميال.

ونصر الله عبده الخطابي نصراً عجيباً في وقت غريب، في زمن لا يتوقع فيه أحد أن ينتصر المسلمون على جيش أوروبي مسلح بسلاح حديث، لكن الحماسة الإيمانية الدافقة التي كانت في قلب الخطابي وجيشه، ونَصْر الله تعالى له أولاً وآخراً قلب كل المعادلات، وأخرس كل الألسنة.

وكان وقع الهزيمة في أوروبا مدوياً، واستغل الخطابي الفرصة فطهر الريف المغربي من الاسبان وحصرهم في سبتة ومليلة فقط وهذا باقٍ كذلك إلى يوم الناس هذا، وأقام إمارة إسلامية مساحتها ٢٠.٠٠٠ كم٢ وسكانها قرابة نصف مليون !!

ـــ وأقام في إمارته أحكام الإسلام، ووطد دعائم الأمن، وأنشأ المدارس والمستشفيات، وأرسل البعثات إلى أوروبا، وقلل جداً من حوادث الثأر بين القبائل حتى أن الرجل كان يلقى قاتل أبيه وأخيه في المعارك مع إسبانيا فلا يمسه بسوء؛ وذلك لأن الخطابي عمل مجلس شورى لإدارة الإمارة من ثمانين من رجال القبائل وأوكل إليه إدارة الأموال الجزيلة التي حصل عليها من فداء أسرى الاسبان، ومن الزكاة الشرعية التي يجمعها من رعيته، وكان يحاول إفهام رؤساء القبائل مؤامرات اسبانيا وفرنسا، وأنهما سبب كبير من أسباب تجهيل المغاربة، وهذا حديث يسمعه أولئك للمرة الأولى، فإنهم كانوا مشغولين

بالثارات والقتال من أجل سفساف الأمور ودناياها، فتركوا الثأر بهذه الطريقة.

وأرسى الأمير دعائم نظام تجنيد فريد حيث أوجب على كل الذكور الذين أعمارهم ما بين ١٦-٥٥ أن يتجندوا كل شهر خمسة عشر يوماً ويعودوا إلى وظائفهم وأهليهم خمسة عشر يوماً وهكذا دواليك كل شهر، فضمن وجود الجند وضمن أيضاً حسن سير الإمارة واطمئنان الناس على أهليهم وأولادهم.

هذا كله عمله الخطابي في وقت كان المسلمون فيه في غاية من الضعف والهوان ليس بعدها غاية، واستطاع -وهو قاض شرعي- أن يفاجئ الاسبان بطرق عجيبة من القتال، فكان يحفر الخنادق، ويباغتهم في جبال الريف حتى أن هوشي منه الشيوعي المشهور الفيتنامي الذي قاوم أمريكا مقاومة ضارية في الثمانينات الهجرية

وأوائل التسعينات/ الستينات والسبعينات الميلادية، كان هوشي منه يقول إنه استفاد من طريقة الخطابي.

وهنا اجتمعت أوروبا لتجهض الإمارة الناشئة التي لو بقيت لغيرت مسار التاريخ، وسبب هذا أن الاسبان توجهوا سنة ١٣٤٣/١٩٢٤ إلى أَجْدير عاصمة الخطابي في مائة ألف وحاصروه ثلاثة أسابيع فأظهر الخطابي ومن معه بطولات رائعة جداً ونادرة في وقت عزت فيه البطولة وانعدم النصر أمام الغرب في العصر الحديث، واستطاع الخطابي ومن معه أن يقتلوا من الاسبان أربعة آلاف في أقل الروايات، واضطر الجيش الاسباني للانسحاب ذليلاً إلى مدريد.

وهذه وقائع جرت في العصر الحاضر وهي لا تكاد تصدق؛ لأن كل المعارك التي دخلناها مع الأوروبيين آنذاك كنا ننهزم فيها على وجه مهين، فأن ينهزم الإسبان الذين خرجوا ظافرين من الحرب العالمية الأولى على هذا الوجه فإن هذا يستدعي تحركاً من أوروبا،

فأرسل المارشال المتجبر المتكبر الفرنسي ليوتي -الذي كان حاكماً في الجزائر آنذاك- إلى فرنسا يقول لهم:

إن انتصار العرب في الريف الإسباني وعلى سواحل البحر المتوسط يعني إنشاء امبراطورية عربية إسلامية وفتحاً جديداً لأوروبا من قبل المسلمين، وهذا أمر لا يمكن القبول به، وبهذا التخويف دخلت فرنسا الحرب ضد الخطابي على رغم أنف البرلمان الذي كان معارضاً، فاجتمعت اسبانيا وفرنسا عليه في جيش عدده زهاء نصف مليون، وحاصر الأسطول البريطاني الخطابي -والأسطول البريطاني كان أعظم أسطول بحري في العالم آنذاك- وكانت الطائرات التي حاربته منتظمة في أربعة وأربعين سرباً !! وصارت تقذفه وجنده بأنواع القنابل وهو صابر محتسب في خندقه، وأوقع بهم في أوقات خسائر جسيمة وصبر صبراً جميلاً حتى أن صحفياً أمريكياً كان موجوداً آنذاك في ساحة المعارك يتابعها وهو فانسن شين قال:

دخلت على عبدالكريم في خندق أمامي، والطائرات الاسبانية والفرنسية تقذف المنطقة بحمم هائلة فوجدته متبسماً مرحاً مقبلاً -الله أكبر ما أجمل وأحسن نفوس الصالحين- يضرب ببندقيته الطائرات، فتعجبت من هذا الرجل الذي استطاع أن يحافظ على إيمانه وعقيدته في خضم الظروف المحيطة به، وكنت أتمنى أن أمكث أكثر فأكثر مع هذا الرجل العظيم الذي تحيطه هالة من الوقار والجلال، وأقارن به ساسة أوروبا التافهين المشغولين بأمور تافهة فلا أكاد أجد وجهاً للمقارنة، وتمنيت أن أظل أكثر مما ظللت مع هذه الظاهرة البشرية الفريدة التي تأثرت بها أيما تأثر اهـــ.

أرأيتم كيف يؤثر المسلمون الصادقون في الناس عامة وفي أعدائهم خاصة ؟!

ويقول كورتي عضو مجلس العموم البريطاني:

إن هذا الرجل الذي ينادي باسمه أهل آسيا وإفريقيا والهند ويتغنون باسمه إن هذا الرجل الذي يزعم هؤلاء أنه يقاتل باسم الإسلام ويعيد إمارة المؤمنين والخلافة الإسلامية إنه لخطر عظيم على البلاد الأوروبية !!

هكذا كان يؤثر فيهم الخطابي الذي لا يعرفه ولم يسمع باسمه أكثر المسلمين اليوم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكان المسلمون يستقبلون انتصارات الخطابي بدموع الفرح والاستبشار الشديد في الهند وعموم آسيا وإفريقيا، وذلك أنه كان يجاهد أثناء وبعد إلغاء الخلافة العثمانية فكانوا يأملون عودتها على يديه.

لكن الكثرة الكاثرة تغلب الشجاعة، فجيش عبدالكريم كان عشرين ألفاً فقط وهؤلاء مئات الآلاف ومعهم الطائرات وكل الأسلحة التي هزموا بها ألمانيا وإيطاليا والدولة العثمانية، وخانت بعض

الطرق الصوفية الخطابي حيث كانوا يوزعون منشورات تقول إن القتال معه ليس من الجهاد !! وخانه بعض رؤساء القبائل الذين اشتراهم الفرنسيون وكانوا ينهون شبابهم عن القتال مع الخطابي !! و لم يجد الخطابي الدعم من الدول العربية والإسلامية التي كان حكامها بين عميل ومشغول بمحنة بلاده، حيث كانت أكثر الدول العربية والإسلامية قد سقطت في قبضة الصليبيين أو الشيوعيين أو عملائهما فلم يجد مفراً من التسليم بعد أن بقي في مائتين فقط !! لكن كان التسليم تسليم الأبطال فقد بقي يفاوض للصلح زماناً طويلاً: من منتصف سنة ١٩٢٥ إلى منتصف سنة ١٩٢٦ تقريباً/ ١٣٤٥ هجرية، أي سنة تقريباً !!

وكان يرفض الاستسلام رفضاً باتاً ابتداءً لكنه لما استشار المائتين الذين بقوا معه أشاروا عليه بحقن الدماء فالطائرات كانت تقذف بالغازات السامة والقنابل وتقتل الرجال والنساء والأطفال،

فأشاروا عليه بعقد صلح مشرف والبقاء في البلد والاستعداد للقتال في أقرب فرصة.

وهنا لم يجد بداً من إمضاء الصلح، لكن الفرنسيين واصلوا قذف القرى بالطائرات بعد التسليم، فقال لهم عبدالكريم: سيكون من المدهش أن تصيب طائراتكم الرجال في هذه المرة؛ إذ كانت العادة ألا تقتل إلا النساء !! إن حضارتكم حضارة نيران، فأنتم تملكون قنابل كبيرة إذن أنتم متحضرون، أما أنا فليس لدي سوى رصاصات بنادق وإذن فأنا متوحش!! وكان بهذا يستهزئ بهم، ويقيم الحجة عليهم لأنهم كانوا يتهمونه بالبربرية والتوحش!!

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة، فدعاة الإسلام اليوم يُتّهمون بالإرهاب قلباً للحقائق وتخذيلاً للمسلمين.

أوصى الأمير أتباعه بالاستمساك بالدين وعدم الركون إلى المستخربين المحتلين، ولما سلم نفسه للفرنسيين -بعد كتاب صلح موثق

وعلى أن يبقى في الريف- خانوا عهدهم معه كعادقم وكعادة كل المستخربين الذين سموا زوراً وبهتاناً بالمستعمرين، فنفوه إلى جزيرة رينيون في المحيط الهادي شرق مدغشقر لمدة إحدى وعشرين سنة !!

وكانوا قد منعوا عنه في السنوات العشر الأولى كل وسيلة اتصال بالعالم الخارجي، فحرموه من الجرايد والمجلات ومن كتبه التي أتى بها معه، ثم سمحوا له بعد ذلك بها، فقضى هذه المدة الطويلة في التأمل والذكر والدعاء والصلاة، فسبحان الله كم يُصبّر عباده؛ إذ لو كان غيره لأصابه الجنون أو أمراض نفسية مزمنة لكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فيصنع حينئذ ما يشبه المعجزات.

الفرج بعد الشدة:

ثم بدا لدولة الطغيان الفرنسية أن تعيده إلى فرنسا، فأتت به سفينة من الجزيرة ومرت بعدن للتزود فتسامع الصالحون من اليمنيين والعراقيين والفلسطينيين في عدن بمرور سفينة الخطابي فأبرقوا لمصر

وطلبوا من المكتب المغربي فيها أن يحتالوا لإنزال الخطابي من السفينة، وكانت سفينة تجارية، فدبر الأستاذ عبدالرحمن عزام الأمر -وهو أول رئيس للجامعة العربية، ومن العاملين نحسبه كذلك والله حسيبه- دبر الأمر مع الملك فاروق وكان ذلك سنة ١٩٤٧، وصعد برجال إلى السفينة وطلبوا من قائدها أن يترل الخطابي لمقابلة الملك والسلام عليه هو وأخوه وعمه عبدالسلام، فمشت الحيلة على القبطان، وسمح بنـــزول الخطابي، فأبقته مصر عندها، وهنا قامت قيامة فرنسا وثارت لكن بعد فوات الأوان، ومن الطريف أن فرنسا اهمت مصر بالخيانة والغدر، سبحان الله فهم أهل الخيانة والغدر الذين نكثوا عهدهم مع الخطابي ونفوه إحدى وعشرين سنة.

واتصل الخطابي بدعاة مصر وفضلائها وكبارها وعلى رأسهم الأستاذ الإمام حسن البنا رحمه الله، وأعجب به وبدعوته، ولما وصله خبر اغتياله بكى وقال: يا ويح مصر والمصريين مما سيأتيهم من قتل البنا، قتلوا ولياً من أولياء الله، وإن لم يكن البنا ولياً فليس لله ولي !!

واتصل بمكتب المغرب العربي في القاهرة حيث عينوه رئيساً له، وأخوه كان نائباً له، وعمل مع أعضائه لتخليص بلادهم من الاستخراب الأجنبي البغيض، وهكذا الداعية لا يفتر ولا يقعد، فبعد إحدى وعشرين سنة من النفي والعزل عاد الأسد إلى عرينه، واتقدت الشعلة التي أطفأها الطغيان، واتصل بالمغاربة، وبالحاج أمين الحسيني وجميعة الشبان المسلمين وجماعة الإخوان المسلمين.

ثم لما جاء الطاغية الهالك جمال عبدالناصر في انقلاب يوليو المشؤوم سنة ١٩٥٢ بمصر فترت العلاقة بين الخطابي والثائرين، وكيف يلتقيان وهؤلاء منهجهم الارتزاق من موائد الشيوعية والرأسمالية، وطريقهم هو القهر والاستبداد، وعملهم هو إفساد البلاد والعباد، وهذا طريقه الجهاد في سبيل الله، ومنهجه الإسلام، وعمله دعوة في سبيل الله ؟ فكانت النتيجة أن أهمله المسؤولون المصريون وضيقوا عليه الخناق فمات يوم مات سنة ١٩٦٢/١٣٨٢ ولم تذكره وسائل الإعلام بكلمة، ولم يؤبّن التأبين اللائق به.

لكن هكذا كل عظيم من الرجال يموت في هذا الزمان فقلما ينال ما يستحقه من إبراز لعمله، وإظهار لمآثره، وبيان لجهاده ودعوته، لكن لا يضره أن العبيد أهملوه وملائكة السماء -إن شاء الله- استقبلوه، ولا يؤثر فيه إهمال سيرته إذا كانت مكتوبة في الملأ الأعلى بحروف من نور بإذن العزيز الغفور.

ونحن لن نيأس أبداً إن شاء الله تعالى، ففي الإسلام عشرات الآلاف من الأبطال من أمثال الخطابي، وسيكون للإسلام دولة بإذنه تعالى على أيدي هؤلاء الأبطال، M < = > @ A B C D L.

٦ - أبو الأحـــرار

محمد محمود الزبيري

١٣٣٧ - ١٣٨٤

١٩١٩ - ١٩٦٥

هو أبرز الشخصيات اليمنية في القرن الرابع عشر / العشـــرين الميلادي ، ولد سنة ١٣٣٧/١٩١٩ ، وقتل ســـنة ١٣٨٤/١٩٦٥ ، فعاش سبعاً وأربعين سنة فقط لكنها كانت حافلـــة بجليـــل العمـــل وعظيمه.

كانت اليمن أكثر البلاد العربية تخلفاً في القرن الماضـــي ، في كل جوانب الحياة تقريباً ، إلا أنها كانت مختلفة عن سائر تلك البلاد

بأمرين اثنين : بقاء أكثر أهلها على فطرة سليمة ، وأن أرضها لم يطأها مستخرب أجنبي قط (في قسمها الشمالي)، وحالها مثل حال البلاد السعودية آنذاك، وكان يعم البلادَ جمود ثقافي وفكري ، وكانت تدار بنظام غريب ، فلا وزارات ، ولا نظام مالي ، ولا تخطيط ، واقتصادها ضعيف ، وجنوب اليمن كانت مستخربة بريطانية ، وأهل البلد موزعون على طبقات : طبقة السادة آل البيت ومنهم الحكام، ثم القضاة والعلماء، ثم التجار ، ثم الزراع ، ثم طبقة العمال الدنيا.

والمدارس قليلة جداً ، والخدمات الصحية تكاد تكون منعدمة ، والتنقل على الجمال والبغال والحمير في الأغلب ، واليمنيون يعانون من الأمية (٩٧%) والأمراض تفتك بهم ولا مستشفيات ، والبلد تعاني من مجاعة في كثير من أجزائها ، وقد قال أحد الغربيين يصف اليمن آنذاك : "إن مصر متخلفة عن أوروبا مائة عام ، أما اليمن فإنها لا زالت تعيش في عصر ما قبل التوراة !!" وكلامه وإن كان فيه مبالغة لكنه يصف جوانب من الواقع وصفاً صادقاً.

وكان الزبيري رحمه الله تعالى من طبقة الشباب المتطلعين للإصلاح ، وهي طبقة جهودها متصلة بجهود المصلحين اليمنيين ابتداء من إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٨٤٠ مروراً بالمَقْبَليّ والحسن الجلال والأمير الصنعاني وانتهاء بخاتمة المصلحين من العلماء العاملين ألا وهو الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ ، وكان أولئك المصلحون قد حاولوا بكل جهدهم التقليل من العصبية الزيدية الشيعية ونشر الوعي في المجتمع ، فتطلع إلى عملهم الزبيري وأصحابه ممن يتطلعون إلى الإصلاح.

وهناك عامل آخر مؤثر في مسيرتهم الإصلاحية ألا وهو اطلاعهم على تجارب الإصلاح في العالم الإسلامي وعلى رأسها تجارب الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا والبنا وغيرهم من الدعاة والمصلحين.

وتأدب الزبيري وصحبه بأعمال شوقي وحافظ إبراهيم والرافعي والعقاد وغيرهم.

ولد الزبيري في بستان السلطان في صـــنعاء ســـنة ١٣٣٧ / ١٩١٧ ، وبستان السلطان حي منسوب إلى السلطان طغـــتكين بـــن أيوب أخي صلاح الدين الذي أرسل أخاه حاكماً على الـــيمن أواخـــر القرن السادس الهجري ، وأسرته أسرة عريقة في التأليف والقضاء ، وأبوه قاض في تهامة ، ومات وعمر ابنه عشر سنوات فنشأ الزبيري يتيماً.

والزبيري ينتمي إلى قرية الزبيرات من أرحب من قبيلة بكيل.

حفظ القرآن وجوده على قراءة نافع وعلى رواية حفص منذ سن مبكرة ، وكان له صوت حسن في الإمامة يجذب الناس إليـــه في مسجد التقوى ، ودرس علوم اللغة على عدد من العلماء.

ولما بلغ عشرين سنة رافق الأمير علي بن عبدالله الـــوزير إلى الحجاز للحج ، ثم إلى القاهرة حيث حدث تحول كبير في حياته لأنـــه رأى فيها نشاطاً سياسياً وأدبياً كبيراً ، ونزل طالباً في دار العلوم فيها ، ونظم قصائد شعرية وقد كان شاعراً فحلاً ، شعره من الطبقة الأولى،

ومن مميزات شعره التي ميزته حتى عن شوقي أنه كان يفيض بالمقت للطغيان والتنديد بالاستخراب واليهود والمطالبة بالإصلاح ، وكان يلقي شعره في الكلية والمحافل الأدبية.

واتصل بالبنا الذي قربه وكان يرى فيه أملاً لإقامة الحكم الإسلامي الصحيح في اليمن ، هذا كله وعمره ٢٢ سنة ، وفي هذا دليل كبير على نبوغه المبكر.

مكث في القاهرة ثلاث سنوات عاد بعدها إلى اليمن منتصف سنة ١٩٤١/١٣٦٠ مرحباً به من طلابها وعلمائها ، واستقبله الإمام يحيى في مجلسه، وقدم له الزبيري مشروعاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ٢٢ صفحة تحوي ٣٧ مادة ، وأحاله الإمام للسيد زيد بن علي الديلمي الرئيس الأول للاستئناف العالي ، وشكلت هيئة قضائية لدراسته ورفع تقرير عن البرنامج وصاحبه.

وفي ذلك الوقت خطب الزبيري خطبة بليغة في الجامع الكبير في صنعاء نقد فيها الظلم والأوضاع السائدة فأمر الإمام بسجنه ، وسجن مجموعة معه من المطالبين بحقوق الشعب ، فمكث في السجن قرابة عشرة أشهر.

ثم كتب من سجنه قصيدة استعطف بها الإمام وولي عهده أحمد بن يحيى حاكم تعز فأطلقه الإمام يحيى.

ثم طلبه الأمير أحمد ليكون إلى جواره هو وزيد الموشكي والشامي وخطيب اليمن أحمد محمد نعمان ، وكان أحمد يشاطرهم همومهم ظاهراً ويطارحهم الشعر ، ويأمر بإخراج المساجين من رواد الإصلاح تودداً وتقرباً إلى الإصلاحيين ، ولقب الزبيري بأمير الشعراء ونعمان بأمير الخطباء ، لكن سرعان ما اختلفوا وقال أحمد: أريد أن أتقرب إلى الله بدماء هؤلاء الأدباء الجدد !! فهرب الزبيري ومن معه إلى عدن أوائل سنة ١٣٦٣/١٩٤٣ حيث اجتمع الإصلاحيون

وانتخبوا الزبيري رئيساً لحركتهم في عدن ، وأفاض في شعره في عدن بالمطالبة بالإصلاح والحرية ورفع المظالم.

أنشأ الجمعية اليمنية الكبرى، وكان للإصـــلاحيين اجتمـــاع باسم نادي الأحرار اليمنيين، وكان في الشمال تنظيمان: هيئة النضال في صنعاء وهيئة الإصلاح في إب، وكان للتنظيمين اتصال بالحركة في صنعاء فجمعهم الزبيري كلهم في الجمعية اليمنية الكبرى ، وفي تلـــك الأثناء زار الإمام أحمد عدن وأبدى استعداده للإصلاح ، لكن الحركة طالبته بجملة أمور كبرت عليه ، ولم تنجح محاولة التوفيق بين أحمـــد والإصلاحيين.

أنشأت الحركة عدة صحف في عدن والقاهرة، وانضم إليهـــا الأمـــير سيف الحق إبراهيم بن يحيى في عدن ، وألقى بياناً قويـــاً في افتتـــاح الجمعية اليمنية الكبرى ينعي فيه اليمن وجهه إلى الشعب وإلى الجامعة العربية ، فاتصل الإمام يحيى بجورج السادس ملك بريطانيا وشكا إليه

ما يجري فسحب الإنجليز ترخيصهم لحزب الأحرار فانشق الحزب على نفسه، وعاد بعض أفراده إلى تعز حيث سجنهم أحمد ، ثم ولاهم مناصب صغيرة.

ثم في ثورة سنة ١٣٦٧/١٩٤٨ أعدم أحمد منهم جماعة منهم زيد الموشكي ، وبعض المؤرخين يبرر خروج البعض بأنه أمر مخطط له وليس انشقاقاً.

وفي ذلك الوقت جاء من القاهرة المناضل الجزائري الفضيل الورثلاني بتنسيق وتوجيه من الإمام البنا، وأنشأ شركة للسيارات في صنعاء أتاحت له الاتصال بيحيى والتردد إلى عدن حيث يقيم الزبيري ، وأثر الفضيل في الزبيري تأثيراً بالغاً ، وعده الزبيري واحداً من عمالقة الإصلاح ، واستطاع الفُضيل أن يجمع بيوتات مهمة في الأحرار : آل الوزير وآل المتوكل وآل النعمان وآل شرف الدين ، وشارك الفضيل والبنا والزبيري ومن معه في إعداد الميثاق الوطني

المقدس الذي أظهر الإسلام شريعة مصدراً وحيداً للحكم ، والشورى أساسه والنظام أسلوبه.

قامت الثورة على الإمام يحيى وقتل سنة ١٣٦٧/ ١٩٤٨ استعجالاً من بعض أفراد الإصلاح وكان هذا أكبر خطأ وقع فيه رجال الثورة ، ذلك لأن حكم الأئمة قد رسخ في اليمن قروناً فأن يقتل هذا الإمام على هذا النحو فهذا لا يرضي أحداً حتى الزبيري نفسه ، وقتلوا يحيي بعد أن جاز الثمانين وهذا عامل كبير في تأليب القبائل على رجال الثورة بعد ذلك.

وقام عبدالله الوزير وسمى نفسه إماماً على اليمن وسمى علياً ابنه ولياً للعهد ، وأرسل طلباً للجامعة العربية بإرسال وفدها إلى صنعاء من أجل تثبيت حكمه، لكن أحمد استطاع تأليب القبائل على الوزير ورجال الثورة، وحوصر في صنعاء، وفشلت الثورة، وقتل أحمد عدداً كبيراً من الأحرار، وقتل عبدالله الوزير.

وهرب الزبيري إلى باكستان التي قضى فيها خمس سنوات صعبة، ومن العجيب أنه كان قد اضطرته الأحوال لبيع الأقفال والمفاتيح في صندوق يضعه على صدره.

وفي ليلة من الليالي وهو يجول بصندوقه لقيه الشاعر الكبير عمر بهاء الدين الأميري سفير سوريا في باكستان فرجاه الزبيري أن يكتم الخبر لكن الأميري أخبر الرفاعي سفير الأردن في باكستان فأبلغ الملك عبدالله بن الحسين فاتصل بالإمام أحمد في اليمن وعرض عليه العفو عن الزبيري فوافق أحمد لكن الزبيري رفض العفو إلا أن يشمل الجميع.

واتصل بالزبيري شيخ الإسلام شبير العثماني الباكستاني، والقاضي محمد العمري من قبل الإمام أحمد يطلبان منه العودة وأقسم أحمد أن يضعه في أحسن المراكز لكنه رفض واشترط للرجوع إطلاق السجناء وإصلاح الأوضاع.

ثم عمل بوساطة شيخ الإسلام شبير العثماني أستاذاً بجامعـــة كراتشي، وعمل مذيعاً بصوت باكستان العربي وأقلع عنه الفقر برهة من الزمن، لكن وفاة شيخ الإسلام ووفاة وزير التعليم أرجعتـــاه إلى سابق عهده من الفقر والضنك والعيش في كوخ حقير.

ولما قامت الثورة في مصر سنة ١٣٧٢/١٩٥٢ اتصل بسفيرها الشاعر عبدالوهاب عزام ووافقت مصر على عودة الـــزبيري إليهـــا ، ومن صوت العرب تحدث إلى اليمنيين ، وأنشأ الاتحاد اليمني الـــذي عطله عبدالناصر سنة ١٣٧٦ /١٩٥٦ لكن لما عارض أحمد الوحـــدة بين مصر وسوريا سنة ١٣٧٨/١٩٥٨ بـــأرجوزة مشـــهورة سمـــح عبدالناصر للاتحاد باستئناف نشاطه الصحفي والإذاعي ، لكن فترت العلاقة بينه وبين عبدالناصر فيما بعد؛ وذلك لأن الزبيري كان مسلماً صحيح الإسلام ، داعية إلى الله، مكافحاً عن دينه ومثله لا يطيقه ذلك الطاغية.

مكث الزبيري في القاهرة عشر سنوات احتضن فيها الطلبة اليمنيين منفقاً وقته وأكثر مرتبه عليهم ، شاداً لهم إلى دينهم وقضايا وطنهم ، وكان الشيخ الزنداني من أحب الطلبة إليه وقد لازم الزبيري حتى استشهاده ، يقول عنه الشيخ الزنداني وكان معه في القاهرة(٢):

"لقد وجدنا شيخنا، لقد وجدنا من يصلح أن يكون قائداً لنا وموجهاً، وتعرفنا عليه، واطمأنت نفوسنا إليه، وأخذنا نزوره في بيته وإذا بنا نكتشف عملاقاً من العمالقة".

هذا وقد قال له الزبيري:

"لقد كنا نتحرك في الحركة الوطنية وكنا نرجو من شبابنا أن يكونوا هم المدد لنا ولكن سبقتنا الأحزاب هذه إليهم ، وأصبحنا زعماء بغير جنود؛ لأن الجنود -وهم أبناؤنا- أخذهم الأحزاب ونظمتهم في الخلايا، وأصارحكم وأقول إن سبب ذلك أننا قصرنا في

(٢) استقيت هذا من شريط مسجل للشيخ الزنداني ترجم فيه للزبيري.

تربية أبنائنا في الاتحاد اليمني تربية إيمانية إسلامية ، لــذلك مــن الآن سنصلح ما أفسدنا".

وكان يأخذ الشباب من الدقي إلى الأهرام مشياً على الأقــدام وهــي مسافة طويلة فيقولون له : لماذا يا أستاذ ؟ فيقول : لا بد من الخشونة ، لا بد من الرجولة ، لا بد من الزهد والتقشف.

ثم يقول الزنداني:

وجدنا شيخاً أنشط من الشباب فطاوعناه، ثم صرنا نذهب إلى بيوت الطلاب نطرقها باباً باباً مشياً لا نركب لنــوفر الفلــوس، ثم استجاب له عدد من الطلاب الذين كانوا يدرسون في القاهرة وبايعوه أميناً عاماً لهم ، وكانت حركة سرية.

بعد ثورة سنة ١٣٨٢ /١٩٦٢ على البدر رجع الــزبيري إلى اليمن بطلب من الضباط الثوار الذين كانوا بحاجة لشخصــية مثــل

الزبيري تضفي على حكمهم شرعية يحتاجونها وسط أجـــواء مليئـــة بخصوم الثورة من الملكيين.

واستقبل في صنعاء استقبال الزعماء ، وعين وزيراً للمعارف ، لكنه وجد في اليمن خليطاً من الأحزاب التي هي امتـــداد لأحـــزاب الجنوب الضالة ، ووجد شعباً ممزقاً ، ووجد خللاً في الثورة وضبطها، فاعتزل الوزارة، وآلى على نفسه ألا يهدأ حتى تنصلح الأوضاع.

وقرر ضباط الثورة أن يجندوا الشعب في تنظيم شعبي، وأوكلوا أمر إنشائه للزبيري، فقال: التنظيم لا بد له من مقـــرات ومـــوجهين فمقراتنا المساجد وأعضاء التنظيم هم المصلون، والموجهون هم الأئمة والخطباء والعلماء، وجعل قاعدة الانطلاق الجامع الكبير في صـــنعاء ، وكان يدخل الحارات وينادي الناس فيجتمعون في المســـجد فيأخـــذ عليهم اليمين ، ويطلب منهم أن يختاروا أميناً للتنظيم وأميناً للـــدعوة

وأميناً للاتصال، فأمين الدعوة عالم، وأمين الاتصال شاب، ثم هنــاك جلستان في الأسبوع: الاثنين والخميس، فاستقطب بهذا علماء صنعاء.

وعمل أعمالاً شعبية جيدة من تنظيف الحارات، واســتقبال متطوعي الأطباء ، وإقامة حلقات تحفيظ القرآن، وتســامع بــذلك القبائل فطلبوا من الزبيري أن يدخلهم في هذا التنظيم الشعبي إعجابــاً بأعماله.

وقد انزعج الروس من هذا التنظيم الجديد فطلبوا من القيــادة العربية (المصرية) إيقافه فصدر الأمر بوقف العمل بــالتنظيم فــانزعج الزبيري لكنه لم ييئس ، وطلب عقد مؤتمر شــعبي يضــم الملكــيين والجمهوريين ، واستطاع أن يجمعهم في عِمْران -إحدى مناطق اليمن الشمالي القريبة من صنعاء- حيث أرسلت القبائل ممثليها ، وأرســل العلماء ممثليهم ، وأرسلت سائر النواحي من يمثلها.

وعقد المؤتمر وحضر ممثلون من الجيش ، وقرر المؤتمرون إلغاء المحاكم العسكرية وتكوين المحاكم الشرعية ، وتكوين جيش شعبي من ٢٨ ألف مقاتل يؤازر الجيش الرسمي ، وصدر قرار بتكوين مجلس للشورى وقرارات أخرى لضبط القضايا المالية وبعض الأمور السياسية الداخلية والخارجية.

واتفق المؤتمرون على كيفية لتحويل القرارات من الورق إلى الواقع عن طريق تكوين حكم برلماني تكون المسؤولية فيه لرئيس الوزراء، وفوض المجتمعون الزبيري لاختيار رئيس للوزراء، ووافق جميع أركان الدولة اليمنية على قرارات مؤتمر عمران لكن السلال كان في القاهرة، فلما عاد كان مخالفاً لبعض القرارات لكنه تحت الضغط الشعبي استجاب في الظاهر وماطل مماطلة كبيرة فلم ينفذ ما اتفق عليه، والسبب في هذا أن المصريين لم يكونوا يرغبون في تنفيذ هذه القرارات وهم قوة السلال واعتماده كان عليهم.

ولما خاب أمل الزبيري في السلال أنشأ حزب الله ليجمع فيه الجمهوريين والملكيين لكنه لم يستمر إلا ثلاثة أشهر انتهت باغتياله ، واغتيل وهو مستعد لعقد مؤتمر في خَمِر عاصمة قبائل حاشد التي كان زعيمها عبدالله الأحمر -رئيس مجلس النواب اليمني السابق- من أجل كتابة دستور جديد لليمن، فاغتيل في جبال بَرْط وهو خـــارج مـــن المسجد بعد صلاة الجماعة في ذي الحجة سنة ١٣٨٤/ ١٩٦٥ فأرجو أن يكون قد نال الشهادة رحمه الله، قتل بعد أن خافه الملكيون الـــذين فاجأهم بالدعوة في معاقلهم ، وبعد أن كرهه الجمهوريون وشـــنعوا عليه في وسائل إعلامهم ، وبعد أن ضايقه المصريون أيمـــا مضـــايقة ، ووفاء للزبيري اجتمع الشعب في مؤتمر وقرروا أن يكون الدســـتور قائماً على الإسلام ، ثم أصبحت الثورة بين مد وجزر إلى أن قيض الله لليمن رجالاً ثبتوا فيه الإسلام وأبعدوه عـــن النـــــزعات الناصـــرية والقومية والشيوعية.

كانت حياته قصيرة إذ عاش حوالي ست وأربعين سنة فقـــط لكنها كانت مليئة بجلائل الأعمال، وكان زاهداً يؤثر الزهد في شـــأنه كله ، فقد أحضر له الضباط بعد الثورة أثاثاً من مترل الإمام فـــرفض

أخذ شيء منه، وأصر في وزارته ألا يأخذ من مرتبه شيئاً فوق حاجته فمات وهو مدين ، ومنحته الجالية اليمنية في السودان -الذي كـــان يزروه من أجل الدعوة والإصلاح- مبلغاً يستعين به على العيش فأصر على إرجاعه، ولما حج مع علي بن عبـــدالله الـــوزير مـــدح الملـــك عبدالعزيز بقصيدة اهتز لها ابنه سعود فأعطاه بضعة آلاف من الريالات وكانت مبلغاً كبيراً آنذاك فرفض العطية وأرجعها.

والزبيري رائد كبير من رواد الإصلاح في اليمن فهو أول من تقدم إلى الإمام يحيى ببرنامج إصلاحي، وأول من قاد معارضة منظمة، وأول وزير للتربية والتعليم، وأول من أنشأ حزباً، وقد رأى نفســـه في الرؤيا أنه يهز بيده جبلاً ضخماً فيتساقط فهو -إذن- من ساهم بقوة في إسقاط الحكم الإمامي.

له أربعة كتب يتضح فيها فهمه للمنهج الإسلامي وشموليـــة دعوته، وسموها على الوطنية والحزبية، وفيها تحدث عن الغزو الفكري وضرورة الأخذ بالعلوم الحديثة، وله ديوانا شـــعر، وآلاف المقـــالات

والبحوث والخطب ، قال عنه الشيخ عبدالمجيد الزنداني وكانا مصاحباً له مدة طويلة:

"له قدرة بارعة على تجميع الناس على اخـــتلاف انتمــــاءاتهم الحزبية أو القبلية ، يبش في وجوههم، ويستمع إلى آرائهـــم، أحبـــه خصومه وأصدقاؤه".

ومن ريادته الواضحة أنه أنشأ أول مؤتمرات شعبية يشـــهدها العالم العربي كله وربما الإسلامي أيضاً وهذا عجيـــب أن يكـــون في اليمن آنذاك، وكان الشعب يجتمع ويقرر بنفسه ماذا يريـــد وترفـــع القرارات للتنفيذ إلى رئاسة الجمهورية وتوافق رئاسة الجمهورية علـــى ما يريده الشعب، كان هذا حدثاً فريداً وريادة جليلة من الزبيري رحمه الله الذي أنشأ هذا النظام الفريد، ولو قُدر للزبيري أن يمتد به العمـــر ويمضي في مشروعه هذا لتغير وجه اليمن، وربما المنطقة العربية كلها.

هكذا كان الزبيري رحمه الله، وهكذا صنع وقـــدم، وبـــذل وضحى، فالذي يفهم الإسلام فهماً صحيحاً لا يمكن لـــه أن يقبـــع مكانه في ذل وهوان يأكل ويشرب وينام، لا يتحرك لفضائل الأعمال

ولا لعظائم الأمور، إن الذي له هدف في الحياة سام كالزبيري لا يمكن إلا أن تكون حياته سلسلة متواصلة متشابكة من العطاء والبذل والتضحية، رحم الله الزبيري، وأعلى درجته، وأعظم أجره.

٧ـ الباحثة عن الحقيقة

مريـــم جميلـــة

إن أقدار الله في خلقه عجيبة، وتصاريفه مدهشـــة، وهدايتـــه لخلقه تحار فيها العقول، ولا تدركها الأبصار، فمهما أراد من شـــيء حصل، وإذا قدر شيئاً وقضاه لا بد من وقوعه كما أمضاه، ســـبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

كانت هذه مقدمة لا بد منها للحديث عن مريم جميلة ، تلك اليهودية الأمريكية التي هداها الله تعالى للإسلام في سياق عجيـــب ، وجذب مدهش ، وفي زمن لم يكن فيه للإسلام رواج ، ولا للمسلمين سوق نافقة ، ولكنها الهداية ، لا تعرف الحواجز ، ولا تقف دونهـــا

العقبات ، وتنفذ إلى القلوب نفاذ الشمس إلى الأرض ، وتسري إلى العقول سراية الضياء إلى الظلام.

ولدت هذه المرأة العظيمة في نيويورك ١٩٣٤ ، لأبوين يهوديين من أصل ألماني ، واسمها كان "مارجريت ماركوس" وكان لطريقة نشأتها في تلك البيئة المتلوثة بركام الجاهلية دليل على عناية الله تعالى بها ، فهي لم تذق الخمر في حياتها ولم تلتق بالرجال ، ولم تحضر حفلات القوم ، وكل هذا عجيب من مثلها.

وكانت وهي في طفولتها تحضر الدروس التي تقيمها مدرسة الأحد اليهودية ، وتسمع الحاخام وهو يخبرهم بأن العرب واليهود هم أولاد إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلوات وأتم التسليم ، فصارت تتمنى أن تذهب إلى فلسطين لرؤية أولاد عمها والاجتماع بهم ، ثم إنها صدمت بعد ذلك يوم رأت أبويها يحتفلان بقرار التقسيم سنة ١٩٤٧، ويجمعان التبرعات لإقامة الدولة المسخ ، ثم يحتفلان

بانتصار اليهود سنة ١٣٦٧هـــ ١٩٤٨، فصارت تناقش أبويها بقوة في إقامة دولة اليهود على أحزان العرب وآلامهم ، فعجبا من كلامها.

ثم إنها أقبلت على القراءة المطولة والعجيبة من فتاة مثلها، فقد قادها هذه القراءة إلى الهداية، وأبعدها عن الغواية، وقـــرأت أول مــــا قرأت ترجمة القرآن للبريطاني المسلم محمد بيكتهول فتأثرت بما قرأت، وكان لقوة الترجمة أثر في حياتها لم يزل، وقد قارنت بين هذه الترجمة وترجمة يوسف علي التي وصفتها بأنها ضعيفة وتبريرية، أي أن المترجم لم يستطع أن ينفك عن أسر النظرة الغربية وهو يترجم معاني كتــــاب الله تعالى، وهذه ملاحظة جيدة منها تدل على تعمق وفهم.

ثم إنها عثرت في مكتبة نيويورك العامة على كتاب مشـــكاة المصابيح مترجماً إلى الانجليزية وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف فعكفت عليه حتى فرغت منه !! ولو سألت كثيراً من طلاب العلم منا اليوم ومثقفينا عن هذا الكتاب فلربما جهلوا عنوانه -دع عنك قراءته-

ومن رحمة الله بها أنها اطلعت على هذا القدر الكبير من الأحاديث في مرحلة مبكرة ، فهذا الاطلاع الواسع حماها من القرآنيين وضلالاتهم، واستطاعت أن تفهم الإسلام فهماً جلياً باطلاعها على مصــــدريه، والاغتراف من معينهما.

واصلت مريم دراستها الجامعية في جامعة نيويــورك، كليــة الآداب لكنها مرضت فانقطعت عن الدراســة ســنتين، وتناوشــتها الوساوس في مرضها من كل جانب حتى ألحـــدت مـــدة، لكـــن الله تداركها بمزيد من القراءة والاطلاع الذي أوصلها إلى الهدايـــة بعـــد ذلك.

والعجيب أنها استطاعت بهمتها ودأبها أن تتصل بشخصـــيات إسلامية رفيعة القدر في عصرها ، فقد أرسلت للبشير الإبراهيمـــي في الجزائر، وسعيد رمضان في جنيف، ومعروف الـــدواليبي في ســـوريا،

والأستاذ سيد قطب في سجنه بالقاهرة، رحمة الله عليهم جميعاً، وقد دلها الأستاذ سعيد رمضان على الأستاذ سيد وطلب منها أن تراسله.

وأرسلت رسائل عديدة لشخصيات أخرى، لكن كانت نقطة التحول في حياها هي صلتها بالأستاذ المودودي رحمه الله تعالى، وقد عرفته بقراءها مقالة في مجلة إسلامية كانت تصدر في جنوب أفريقيا وأيضاً كان الأستاذ سيد هو الذي نصحها بالاتصال بالمودودي، وقد أعجبت بالمقالة جداً، وأرسلت للأستاذ رسالة على عنوانه في باكستان، فما راعها إلا مجيء الجواب بعد قرابة شهرين فسرت به أيما سرور، واستمرت المراسلات بينهما قرابة ثلاثة سنين وكانت تنقل له في مراسلتها ما يقال عنه في إعلام أمريكا وكندا.

وهذه المراسلات اتضح منها عمق ثقافة مريم جميلة إلى الحد المدهش، فقد سألته أسئلة متنوعة عن عدة شخصيات وناقشته مناقشة مطولة في أشياء بدرت منهم ، فعلى سبيل المثال سألته عن شاه ولي

الله الدهلوي وهو من الأعلام الكبار في تاريخ الهند ويعد مـــن جملـــة المجددين، حيث إنها ظنت أنه أراد اختراع مذهب جديد خارج عـــن المذاهب الأربعة، فبين لها المودودي أن الشاه أراد أن يجتهد في تقريـــر المذاهب الأربعة والاستفادة منها جميعاً و لم يكن كما ذهب ظنها.

وسألته عن إقبال الشاعر المشهور، وقالت له: إن إقبال نصـــر القومية والوطنية في شعره ، فصدقها الأستاذ المودودي وأخبرهـــا أن هذا من الأمور التي بالغ فيها إقبال رحمه الله.

وسألته عن عبدالناصر وقالت إنه شخص يريد أن يعمل لنفسه ولمجده الشخصي، وأن كل مساعداته لأفريقيـــا وغيرهـــا تصـــب في مصلحته الشخصية، وهذا منها فهم دقيق في ذلك الوقت العصـــيب الذي طغت فيه سمعة عبدالناصر على مفاهيم كثيرة وكانت شخصيته القوية ودعاواه القومية قد ضللت أكثر الناس، فأن تفهم مريم جميلـــة شخصية عبدالناصر بهذا الوضوح في آخر الخمسينات فهذا يعد فهمـــاً متقدماً.

وسألته عن أتاتورك والمآسي التي صنعها في تركيا، ولها قـــول جميل في النورسي حيث قالت عنه: "إنه ليس بمبالغة أن نقول إن مـــا تبقى من الإيمان الإسلامي في تركيا إنما يرجع إلى الجهود المثابرة لبديع الزمان النورسي".

وسألته عن القاديانية التي كانت آنذاك في بدايـــة انتشـــارها وتأسيسها مساجدها الضرار في أمريكا، وهذه الأسئلة والمناقشـــات كلها قد جرت في زمن يهوديتها، وهذا عجيب، فهي قد وصلت إلى مستوى رفيع من الفهم والنضج والوعي والثقافة وهي يهودية لم يصل إليه أغلب المسلمين !!

وانظروا إلى همة المودودي -رحمه الله تعالى- حيث لم يهمـــل الرد على رسالة امرأة يهودية على كثرة أشغاله، فكان في الرد علـــى الرسالة، وعلى رسائلها كلها بعد ذلك خير كثير؛ فقـــد شـــرح الله صدرها للإسلام في سنة ١٣٨١-١٩٦١ فذهبت إلى إمام مسجد في بروكلين في نيويورك وهو داود فيصل وأسلمت على يديه، وسمـــت

نفسها بمريم جميلة، وابتدأت في حياتها مدة عجيبة كلــها ابــتلاءات ومحن، فعلى سبيل المثال كانت تذهب إلى المسجد وتناقش المســلمين الذين كانوا يغضبون من آرائها عن عبدالناصر وأتاتورك !! وجاءهــا طالب سعودي في الجامعة ليخبرها أن على كل المسلمين أن يصلوا مع النصارى في كنيسة الجامعة ، فإن لم يستطيعوا فعلى الأقل يحضــرون دروس الأخلاق النصرانية في الجامعة !!!

ورأت المركز التجاري التونسي في نيويورك فولجته سعيدة به لتفاجأ بالخمور تملأ المركز من أرضه إلى سقفه !! وفوجئت بــامرأة فرنسية موظفة في المركز أخبرتها أن بورقيبة بدأ مرحلــة جديــدة في تونس ترك فيها الدين خلف ظهره !!

وكانت بعد تخرجها في الجامعة تبحث عن عمل فــذهبت إلى المركز العربي في نيويورك فما إن عرفوا أنها كانت يهودية فأسلمت وأنهــا تعارض أعمال وأفكار عبدالناصر حتى أعرضوا عنها بعد مقابلة باردة.

وكانت تصلي الجمعة في المسجد، وقد اتفق الطلبة علـــى أن يتداولوا الخطب فيما بينهم، فلما وصلتها النوبة كتبت خطبة بديعـــة رائعة عن وضع المسلمين وكيفية علاج أمراضهم، وألقاها أحد الطلبة نيابة عنها فقامت عليها قيامة سائر الطلاب لأنها ذكـــرت القوميـــة ورموزها بسوء وبينت أنها علة العلل في الجسم الإسلامي !!

وكان هناك من الطلاب من يشكك في الحديث النبـــوي !! ومن كان يزين لها طريقة أتاتورك ونهرو!!

وهكذا تعرضت لمحن كثيرة في عقيدتها وفكرهـــا وثقافتـــها وخذلها المسلمون الذين كانوا حولها في أمريكا أيما خذلان، وكانـــت تخبر الأستاذ المودودي بكل هذا.

ثم بعد ذلك أخبرها والداها بأنهما سيتقاعدان قريبا ويتركـــان شقتهما ذات الغرف الأربعة التي ولدت فيها ويسكنان في شقة أخرى

صغيرة ، وأنها ليس بوسعها أن تكون معهما ولا بد أن تدبر أمرها !! وقد كان عمرها آنذاك سبعة وعشرين عاماً فضاقت عليها الدنيا.

وكان الأستاذ المودودي قد عرض عليها مراراً أن تنتقل إلى باكستان لكنها كانت مترددة ثم بعد كل الذي جرى عليها قررت الذهاب، وأقنع المودودي أمها وأباها برسالة لطيفة أرسلها إليهما وطمأنهما أن ابنتهما ستجد كل الرعاية والاهتمام، وفعلاً حزمت حقائبها وتركت نيويورك سنة ١٣٨٢ - ١٩٦٢ واتجهت إلى لاهور بالباخرة !! فيا لها من رحلة شاقة لكن الإيمان العظيم يذلل المصاعب والمشاق ، والغريب أنها وقفت في الإسكندرية ونزلت من الباخرة ، فصادفت مسجداً فصلت فيه ، فسألها الإمام عن وجهتها فأخبرته أنها ذاهبة إلى باكستان فما كان منه إلا أن قال لها غفر الله له : هل أنت غبية لتتركي أمريكا ؟!

فانظروا رعاكم الله إلى هذا الإمام ومقدار فهمه وإلى صبر مريم جميلة على ما واجهته.

ثم إنها وصلت لاهور وأحسن إليها الأستاذ المودودي وأسكنها في بيته سنتين، ثم إنه زوجها لأحد أتباعه وهو محمد يوسف خـــان ، وهو متزوج وعنده خمسة من الأولاد، لكن هذه المرأة العجيبة لم تمانع في التعدد ، وقد اقتنعت به وهي ما زالت في أمريكا ، وكانت تغضب من المانعين له مثل بورقيبة أو من المبررين له تبريراً ضعيفاً، ثم طبقتـــه بنفسها في لاهور، ومن الطريف أنها عرضت على المودودي الـــزواج منها لكنه اعتذر !! ولها ابنان وبنتان واثنا عشر حفيداً.

وهي تعيش اليوم مع ضرتها في بيت واحد، وهـــي ســـعيدة بحياتها، وراضية، فافهمن هذا يا أيتها النسوة اللاتي تقمن الدنيا علـــى أزواجكن ولا تقعدنها إذا اقترنوا بغيركن.

وعاشت في لاهور من سنة ١٣٨٣ – ١٩٦٣ إلى يوم الناس هذا ولم تخرج أبداً ، ولم تعد إلى أمريكا التي يتمنى كثير منا الـــذهاب إليها والعيش فيها !!

وعاشت حياة إسلامية رائعة ، وهي مشرفة على حلقات نسائية في بيتها ، وما زالت تكتب الكتب وترسل الرسائل إلى الآن حفظها الله ، وقد كلمتها بالهاتف ورجوتها أن تأتي للحج لكنها اعتلت علي بضعفها وكبرها ، وقلت لها إن مجيئك إلى المملكة سيكون له أثر كبير على المسلمات اللواتي سيعرفن قصتك أو عرفنها لكنها اعتذرت حفظها الله، فقلت لها: ما هي وصيتك للمسلمين فقالت: ادرسوا القرآن والحديث، ولا تتبعوا الحضارة الغربية، وادرسوا الثقافة الإسلامية.

وقفات مهمة في حياتها:

١. بقيت بضع سنوات وهي ملحدة تماماً بسبب أنها لم تجد ديناً يشبع همها الثقافي والفكري والروحي حتى أضاء حياتها الإسلام.

٢. لبست الحجاب الكامل والتزمت به، فلقد رأيت لها صورة وهي بالجلباب الأسود السابغ ولا يظهر من جسدها شيء، وهذه أعظم رسالة لكل المسلمات اللواتي يتساهلن في لبس الحجاب،

ويتهاونّ به، فهذه كانت يهودية أمريكية فأســلمت والتزمــت بالحجاب الكامل السابغ.

٣. حاولت أن تدعو والديها للإسلام مراراً عندما كانت في أمريكا وبعد وصولها إلى لاهور برسائل متعددة لكنهما رفضا، وماتــا كافرين سنة ١٤٠٥ / ١٩٨٥، وهكــذا الإيمــان إذا تمكنــت بشاشته من القلوب لا يستطيع صاحبه إلا أن يدعو من يحب إليه ولا يتصور قعوده عن تلك المهمة الجليلة.

٤. عدد كتبها التي ألفتها قرابة ١٤ كتاباً -وما زالت تؤلف حفظها الله- وكلها تفيض بروح وثابة ، وفهم متميز ، واطلاع وثقافة واسعة وأفردت كتاباً في مأساة الفلسطينيين سمته أحمد خليــل، ونشره الأستاذ المودودي في باكستان.

٥. تَعُد المودودي أعظم مفكري القرن على أنها كانــت تراســل شخصيات مثل الأساتذة سيد قطب وجملة غيره ذكرتهم لكم في ثنايا ما كتبته آنفاً ، وهذه شهادة محترمة من امرأة واسعة الثقافة عظيمة الاطلاع مثلها.

٦. أظن أن القراء الكرام يوافقوني على عدّ هذه المرأة مثلاً كبيراً ومهماً في الوصول إلى الهداية عن طريق الاقتناع الكامل الذي تولد إثر قراءة مطولة وثقافة واسعة ومراسلات مع عدد كبير من الشخصيات الإسلامية رفيعة المستوى، وهي بهذا تصلح أن تكون مثلاً رائعاً لبنات جنسها اللواتي يقرأن قليلاً، وثقافة الكثرة الكاثرة منهن ضعيفة، بل ضعيفة جداً.

وأخيراً أقول ما أعظم التبعة الملقاة علينا في إيصال الإسلام لكل البشر؛ إذ كم فيهم من أمثال مريم جميلة ممن يبحث عن الحق ويريده ؟!!

وهذا هاتف ابنها حيدر خان في أمريكا لمن أراد أن يتصل به، وهذا رقمها في لاهور وأرجو من كل القراء أن يتصلوا بها ويهنئوها التهنئة المتأخرة !!

٠٠١٤٢٣٤٨٥١٤٣

٠٠٩٢٤٢٧١٥٥٧٠٢

وهذا بريد ابنها الالكتروني Haiderkhan@hotmail.com

٨- شيخ الإســـلام

مصطفى صبري التوقادي

١٢٨٦ - ١٣٧٣

١٨٦٩ - ١٩٥٤

كانت تركيا عاصمة للخلافة والسلطنة أربعة قرون ونيف، ومن قبل ذلك ظلت قرنين ونيف شوكة في حلق الكفار، وفتح السلطان محمد عاصمة الدنيا آنذاك القسطنطينية، وحمى الله بالعثمانيين الإسلام والمسلمين قروناً طويلة، ونفع بهم كثيراً، وأدخل في الإسلام على أيديهم ملايين من الضالين، ووصل الأذان والتكبير على أيديهم

إلى قلب أوروبا "البلقان"، ولهذه الدولة مآثر لا تحصى، وأعمال لا تحصر ولا تستقصى.

لكن سنة الله تعالى لا تتخلف، فقد ضعف السلاطين وأخلدوا إلى الأرض، ونسوا أن الجهاد عليهم فَرْض، ورضوا بالتمدد اليهودي والماسوني والقومي الطوراني في أراضيهم تهاوناً ثم ضعفاً، وحاول السلطان عبدالحميد إنقاذ الدولة لكن الرياح لم تكن مواتية، والعقبات كانت كبيرة وصعبة.

ثم عزل السلطان وتولى بعده من لا حول له ولا طول، وتربعت جمعية الاتحاد والترقي الماسونية على عرش البلاد، ومن ثم جاء الذئب الأغبر، والضال الأكبر مصطفى كمال الذي ألغى السلطنة سنة ١٩٢٢ ثم الخلافة سنة ١٩٢٤، وأعلن البلاد جمهورية إلحادية ضالة، وأمر بإلغاء الأذان بالعربية وإجبار النساء على السفور والرجال على لبس القبعات، وألغى الحرف العربي الذي كانت تكتب به اللغة

التركية وألغى كثيراً من الكلمات العربية من اللغة التركية، ومنع الحج، وغرب الشعب التركي تماماً.

وفي هذه المدة الكالحة عاش شيخ الإسلام مصطفى صبري أفندي رحمه الله تعالى.

ولد في توقاد من الأناضول سنة ١٢٨٦/١٨٦٩، ونشأ طالباً في كنف المذهب الحنفي الغالب في تركيا، وصار مدرساً في جامع السلطان محمد الفاتح وهو في الثانية والعشرين من عمره وكان أصغر المختارين لتولي هذا المنصب، وهو دال على نبوغ مبكر لاشك، وأجاز خمسين طالباً وهو عدد ضخم.

واختاره السلطان عبدالحميد رحمه الله تعالى ليكون أميناً لمكتبة قصره قصر يلدز، وهذا أتاح له أن يطلع على الكتب الثمينة التي كان قانون حفظ التراث يمانع من إخراجها خارج القصر.

ثم اختير نائباً عن بلدته توقاد في مجلس المبعوثان العثماني ومجلس المبعوثان هو مثل مجلس الشعب الذي يمثل فيه نواب مختارون من كل البلاد التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية.

وكان آنذاك قد رأس تحرير مجلة "بيان الحق" وهي مجلة تصدرها الجمعية العلمية التي كان يرأسها.

وعين عضواً في "دار الحكمة" وهي تضم صفوة علماء الدولة العثمانية آنذاك.

وعينه السلطان في مجلس الأعيان العثماني.

وعين مدرساً للحديث الشريف في دار الحديث.

وعين عضواً في هيئة تدقيق المؤلفات الشرعية التابعة لدائرة المشيخة الإسلامية سنة ١٣٢٣ إلى غير ذلك من الوظائف.

لكن الذي لفت النظر إليه هو مقدرته الخطابية التي وظفها في بيان عورات القوميين الطورانيين ونزعاتهم الإلحادية، وعورات الاتحاديين عموماً -نسبة إلى جمعية الاتحاد والترقي الماسونية التي أمسكت بزمام البلاد عملياً بعد خلع السلطان عبدالحميد، رحمه الله تعالى-.

والكلام في هذه الجمعية والاتحاديين يطول لكن خلاصة أمرهم أنهم أغرقوا البلاد في قومية طورانية تركية مفرطة، وعدوا المسلمين من غير الأتراك كالعرب والأكراد والألبان في مرتبة تلي مرتبة الأتراك، وأذكوا نار العصبية الهائجة التي عجلت بإسقاط الدولة العثمانية، وإذهاب ريحها، وتفريق قوتها، وخُدع المسلمين بنيازي وأنور وشوكت ومدحت وغيرهم من زعماء الاتحاديين ومدحهم مثل الشاعر حافظ إبراهيم وأثنى عليهم طائفة ثم تبين للناس سوء صنيعهم لكن بعد فوات الأوان.

وكان الشيخ قد أسس حزباً اسمه الائتلاف والحرية، أسسه مع بعض إخوانه، وكان نائباً لرئيس الحزب والناطق الرسمي باسمه ورئيس المعارضة البرلمانية، ولمقدرته الخطابية الفائقة صار أبرز الدعاة للحزب المروجين للسياسات المناهضة للاتحاديين والفاضحة لهم ولصلاتهم المشبوهة باليهود، وقد استفاد الشيخ مصطفى صبري من موقعه في المبعوثان -البرلمان- ليكشف عورات هؤلاء الاتحاديين القوميين، فدبروا لاغتياله، فهرب إلى مصر سنة ١٩١٣ ثم إلى أوروبا ليواصل التحذير من هؤلاء وكشف عوارهم وكانت إقامته ببوخارست برومانيا.

ثم قبضت عليه الجيوش التركية أثناء غزوهم رومانيا في الحرب العالمية الأولى وأرسلوه إلى استانبول، وظل معتقلاً إلى أن انتهت الحرب بهزيمة الاتحاديين الأتراك وفرار هؤلاء الاتحاديين.

وعينه السلطان وحيد الدين شيخاً للإسلام في الدولة العثمانية، وعضواً في مجلس الشيوخ، وناب عن الصدر الأعظم – رئيس الوزراء- أثناء سفره لباريس للمفاوضات ستة أشهر، وهذا كله يدل على المكانة العلية التي كانت له آنذاك، ومنصب شيخ الإسلام يلي في الأهمية منصب الصدر الأعظم حسب أنظمة الدولة العثمانية آنذاك.

ثم جاء الكماليون بعد الاتحاديين، وعاث مصطفى كمال في الأرض فساداً، فاضطر مصطفى صبري أن يترك تركيا بعد قرار إلغاء السلطنة سنة ١٣٤١/١٩٢٢ وذهب إلى اليونان، وهناك حشد الأتراك حوله، وأصدر صحيفة تركية كشف فيها عن الوجه القبيح لمصطفى كمال وسياساته، فطلبت الحكومة التركية من اليونان إبعاده، فاضطر للسفر إلى مصر والاستقرار فيها، وكان ذلك في السنة نفسها ١٣٤١/١٩٢٢.

واستضافه الشريف حسين مدة في مكة ثم عاد إلى مصر وبقي فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣/١٩٥٤ -رحمه الله تعالى-.

وكان له في القاهرة جهود ضخمة تمثلت في التالي:

أولاً: فضح مخططات الكماليين –نسبة إلى مصطفى كمال- ضد الإسلام والمسلمين في تركيا، وكان في ذلك مخالفاً لكثير من مثقفي المصريين الذين وقفوا مع مصطفى كمال ورأوا فيه منقذاً لتركيا، لذلك توالت هجمات الصحف على شيخ الإسلام تتهمه بالرجعية والحنين إلى منصبه الذي فقده في تركيا، ومنعت كثيراً من مقالاته، وهنا وضع كتاباً سماه "النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة" طبعه في لبنان التي خرج إليها بعد معارضة كثير من المصريين له، وقد فضح في هذا الكتاب الكماليين وأعمالهم المعادية للإسلام والمسلمين في تركيا، وذكّر بأفعال الاتحاديين وأن أفعالهم وأفعال الكماليين تنطلق من مشكاة واحدة، وذكر أيضاً علاقة الاثنين باليهود، وقد كان وزير مالية الكماليين يهودياً، ووزيرة المعارف خالدة ضياء من أصل يهودي أيضاً.

ولما ألغى مصطفى كمال الخلافة بعد قرابة عام من وجود شيخ الإسلام في مصر تبين للمخدوعين من المصريين صدق ما أخبرهم به شيخ الإسلام، ثم سافر من لبنان إلى رومانيا ثم اليونان التي أصدر فيها جريدة باسم "الغد" ثم أخرجه اليونانيون بناء على طلب الأتراك فلجأ إلى مصر ثانية سنة ١٩٢٩ واستقر فيها إلى أن مات سنة ١٣٧٣/١٩٥٤.

ثانياً: كشف عوار الكتابات الخبيثة التي انتشرت في مصر آنذاك:

وقد كانت تلك الكلمات الخبيثة تكتب في مقالات في الصحف السيارة وفي كتب، كان على رأسها :"الإسلام وأصول الحكم" للشيخ علي عبد الرازق، وقد ثبت فيما بعد أن طه حسين شاركه في تأليف الكتاب، وفيه ذكرا أن الإسلام دين لا دولة، فتصدى شيخ الإسلام لهذا الكتاب وبين عواره.

ثم واجه شيخ الإسلام منكري المعجزات والكرامات أو مؤوليها إلى حد إخراجها من أن تكون خوارق للعادات، وكان منهم في مصر نفر من ذوي المكانة والوجاهة، وإنما فعلوا ذلك مسايرة للعقل —فيما زعموا- ولتبدو متفقة مع طبائع الأشياء، فرد على الأستاذ محمد عبده ومحمد فريد وجدي ومحمد حسين هيكل وجماعة غيرهم، والحق أن رده كان شديداً صعباً لكنه متفق مع طبيعته الحادة وشخصية القوية، ثم إن الملأ في مصر آنذاك كان قد انجرف فريق منهم مع هذه الدعاوى فكان لابد من ظهور صوت قوي لينذر ويحذر ويعيد الحق إلى نصابه، ولعل كتابه "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين" هو أهم مؤلف له في هذا الباب، الكاشف لهذه الأخطاء، وهو ضخم جاء في أربعة أجزاء وفي بعضه نزعة فلسفية.

ثم أصدر كتاب "قولي في المرأة" في سنة ١٣٥٤/١٩٣٤، رد فيه على اقتراح قدم إلى مجلس النواب المصري طلب فيه مقدموه تعديل قانون الأحوال الشخصية والأخذ بمبدأ تقييد تعدد الزوجات وتقييد

الطلاق والتساوي في الميراث بين الذكور والإناث، إلى آخر المنظومة المكرورة المكروهة.

وله كتاب رد فيه على مسألة ترجمة معاني القرآن الكريم التي أثارها الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، وكان الشيخ مصطفى صبري معارضاً لها كل المعارضة، وقد استقر المسلمون اليوم على جواز ترجمة المعاني بلا نكير، لكن لعل رده على الشيخ المراغي كان—إضافة إلى ما سبق- بسبب أن المراغي أجاز الصلاة بالقرآن المترجم إلى التركية وغيرها، وهذا هو الذي أثار الشيخ مصطفى صبري لأن هذا كان صنيع الكماليين في تركيا وكأن المراغي بهذا يبرر صنيعهم ويجوز فعلتهم.

وله عدة كتب غير هذه، وله مئات المقالات بالعربية والتركية.

وقد كانت الحكومة التركية قد وضعت اسمه في قائمة الممنوعين من الرجوع إلى تركيا، وجردته من الجنسية التركية، فعاش

في مصر في شدة وشظف عيش، وقاسى كثيراً مادياً ومعنوياً حتى أنه اضطر لبيع كتبه ليسافر من استانبول إلى مصر بالباخرة مع أسرته في الدرجة الثالثة لكنه ثبت فلم يضعف ولم يهن ولم يتراجع عما رآه حقاً، وأزعم أن مصر آنذاك كانت بحاجة إلى عالم رباني قوي مثله في مدة تنازعتها الأهواء من كل جانب، وقَلّ فيها العلماء الربانيون الذين يقومون بما أخذه الله عليهم من القيام به.

معالم في شخصية شيخ الإسلام:

في شخصية شيخ الإسلام مصطفى صبري معالم مهمة تعد بمثابة أركان البناء، وصبغت بها كتاباته صبغة ظاهرة، فمن هذه المعالم:

أولاً: الاستقلال الفكري:

فلم يكن يتبع جهة ما كائنة ما كانت، ولا يقيم لشخصية ولا لهيئة وزناً إلا بقدر اتباعها للحق وخضوعها له، وهذا في زمانه أمر صعب لا يقوى عليه إلا القليل، والشيخ رشيد رضا يشبهه في هذا

الباب —بعد وفاة شيخه محمد عبده- إلا أنه لم يصل إلى مرتبته في هذا الأمر خاصة، وبسبب هذا الاستقلال في فكر الشيخ مصطفى فقد نقد كثيراً من الشخصيات القديمة والحديثة، إسلامية وغير إسلامية ، ولما قيل له : كيف تنقد هؤلاء الأعلام ؟ قال : إن كتابي كتاب مبادئ لا كتاب تراجم.

ثانياً: صلابته في الحق وفي الدعوة إليه:

فقد كان ينبري للدفاع عما يراه حقاً بأسلوب قوي وعبارات شديدة أحياناً وربما وصلت إلى حد الاتهام لبعض الأعلام، وهذا أثار عليه نقمة أشخاص كثيرين ووجه بمضايقات كثيرة لكن هذا كان طبع الرجل لا يستطيع الانفكاك عنه.

وأزعم أنه -فيما قرأته له- قد أصاب في كثير من نقده، وجانبه التوفيق في القليل، وذلك لأن زمانه كان حافلاً بالمتفلتين والعقلانيين والمسايرين لركاب الغرب وأفكاره وتصوراته، وكان منهم

أعلام وشخصيات كبيرة مصرية، وكان من ينقد هؤلاء مثل الكبريت الأحمر في قِلّته، فقام الرجل بما رآه حقاً وواجباً لا يلوي على شي، ولا يداري أحداً.

وقد كان هؤلاء النفر –غفر الله لهم- قد تكلموا بكلمات فيها تجاوز وفيها خطورة، فكان لابد أن يُردَّ عليهم رداً قوياً مفحماً، وكان بعض هؤلاء قد التبست بعض أحوالهم إلى الحد الذي ينبغي أن يتكلم في شأنهم متكلم ما، فكان هذا المتكلم الجريء هو شيخ الإسلام مصطفى صبري، ومن أجل ألا أغرق في التعمية أحيل القارئ إلى المجلدين: الأول والرابع من كتاب "موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين" ففيهما تفصيل وتصريح وتوضيح، ولولا أن حال بعض هؤلاء الذي رد عليهم الشيخ لازال ملتبساً علي وليس عندي كلمة فصل فيهم لذكرت أسماءهم اللامعة وبعض أحوالهم الشاطحة.

ولا يُنسى أيضاً أن مصر في أوائل القرن الماضي حتى الثلث الأول منه بل إلى قريب من منتصفه كانت معتركاً كبيراً بين المتغربين والمستشرقين والمشبوهين وبين المخلصين، وكان في بعض هؤلاء المخلصين -على قلتهم- قدر غير قليل من الخلط والخطأ في فهم هذا الدين وتفنيد بعض الشبهات حوله، وكان في بعض أحوالهم ما يدعو إلى العجب والتساؤل، ولذلك كان ما كان من موقف شيخ الإسلام.

وأزعم أن الله أنجد مصر بعد ذلك برجال مفكرين عظماء صححوا مسيرة الفكر الإسلامي عموماً بعيداً عن التهاون والشطح والتنازل، وطووا بذلك صفحة أولئك الذين كان لهم جهد مشكور في الدفاع عن الإسلام لكن امتزجت جهودهم تلك بشوائب من الأحوال والأقوال كان لابد من تنقيتها وتهذيبها فأتى الله بكوكبة من المشايخ من مصر نفسها عدلت المسار، وضبطت الأفكار، وكتبت كتابات رائعة أزعم أن شيخ الإسلام لو اطلع عليها لقرّت بها عينه، والمقام لا

يتسع للتفصيل، وفيما ذكرت كفاية، ولعلي أعود إلى ذلك في مقام آخر متوسعاً مفصلاً إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: تضلعه من علم الكلام:

وهذا ظهر بوضوح في مؤلفه :"موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين"، وقد كان في زمن انتشر فيه الإلحاد، وعم وطم، وكان الرجل متحمساً لإثبات وجود الله تعالى بأدلة عقلية كلامية، وبنـــزعة فلسفية أحياناً.

رابعاً: شجاعته:

كان شيخ الإسلام ذا شجاعة عظيمة مكنته من مواجهة الاتحاديين ثم الكماليين ثم المتغربين في مصر –خاصة- وفي غيرها، ولم يأبه بما قد يتعرض له من أذى أو اغتيال، ونبرته الشجاعة واضحة كل الوضوح في كتاباته.

خامساً: حماسته وهمته:

كان شيخ الإسلام ذا حماسة واضحة، وهمة عالية، وقد ثبت على هذه الحماسة والهمة دهراً طويلاً حتى توفاه الله تعالى فلم ينتكس أو يضعف أو يلن رحمه الله.

سادساً: وعيه الكبير بمخططات الأعداء، وشبهات المستشرقين والمستغربين:

وهذا الوعي في زمانه يعد متقدماً جداً بالنسبة إلى أكثر علماء عصره آنذاك، وقد ظهر هذا الوعي جلياً واضحاً في كل كتاباته، وأذكر منها قوله في دعوة العلماء للاشتغال بالسياسة: "فالعلماء المعتزلون عن السياسة كأنهم تواطأوا على أن يكون الأمر بأيديهم – أيدي السياسيين- ويكون لهم منهم رواتب الإنعام والاحترام".

شيخ الإسلام مصطفى صبري في عيون معاصريه:

قال عنه الأستاذ محب الدين الخطيب :"فحل الفحول الصائل الذي يعد فضله أكبر من فضل معاصريه".

وقال عنه الأستاذ الكوثري: "قرة أعين المجاهدين".

وقال عنه الأستاذ عبدالفتاح أبو غدة: "إن كتابه موقف العقل هو كتاب القرن بلا منازع".

وقد قيل عنه غير ذلك، ويكفي في هذا المقام أن أورد كلام الأستاذ محمد رجب البيومي -الذي ناله تقريع كبير من الشيخ لأمر صدر عنه- حيث قال الأستاذ محمد حفظه الله:

"إني ما ذكرت الشيخ الكبير إلا توافد على ذهني مع هذا الوصف العربي القديم لصاحب الصيحة المجلجلة في المأزق الضائق وهو النذير العريان؛ إذ كان من عادة الأسلاف حين تلوح بوادر الخطر

ويتنبه لها ذو بصر سديد أن يخلع ثيابه ويقف صائحاً فوق مرتفع من الأرض ويقول مشيراً إلى ثوبه المخلوع وقد جعل يحركه عن يمين وشمال: لقد حانت الكارثة: أنا النذير العريان، فيعلم السامعون أن الأمر جد، ويسرعون للتأهب العاجل دون انتظار".

رحم الله شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي وعوض المسلمين عنه خيراً فنحن بأمس الحاجة لأمثاله في هذا العصر الذي أصبح كثير من المشايخ فيه موظفين لا قيمة لهم ولا وزن، ولا هيبة ولا كلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

٩ - شاعـــر تركيـــا

محمد عاكف أُرْصوي

١٢٩٠ - ١٣٥٥

١٨٧٣ - ١٩٣٦

قد بينت في ترجمة شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي حالة تركيا في أواخر الخلافة العثمانية وكيف تمالأ عليها الأعداء والشامتون والمتربصون، وكيف توالى عليها الماسونيون من جمعية الاتحاد والترقي ثم خلفهم الكماليون وكان لليهود يد طولى في كل ذلك، ثم ألغيت السلطنة سنة ١٩٢٢ فالخلافة سنة ١٩٢٤ وأُعلنت تركيا جمهورية علمانية ملحدة، وقطعت صلتها بالإسلام وسائر

المسلمين تماماً، فصار المسلمون في تركيا وخارجها كالشياه بلا راع في الليلة المطيرة المظلمة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يكن في العالم الإسلامي آنذاك قوة تستطيع قيادة الجموع المسلمة ولا إرشادها، وفي الوقت نفسه حورب علماء الإسلام ودعاته والمخلصون في تركيا حرباً شعواء لا تبقي ولا تذر، وعُلِّق الآلاف على أعواد المشانق، وكلح وجه تركيا، وأدارت ظهرها تماماً للإسلام والمسلمين.

وفي ذلك الوقت فر جماعة من هذا البطش الكافر والهجوم السافر فروا إلى مصر، كان بينهم علماء مثل شيخ الإسلام مصطفى صبري التوقادي، ووكيل المشيخة الإسلامية محمد زاهد الكوثري، وفر فيمن فر الأديب الشاعر محمد عاكف أرصوي، فوجدوا في مصر ملاذاً وملجأً آمناً.

ولد الشاعر محمد عاكف في اسطنبول سنة ١٨٧٣، من أب تركي يسمى محمد طاهر وأم بخارية تدعى أمينة هانم، وتعلم العربية على يد والده الذي كان مدرساً في مدرسة الفاتح، ودرس الابتدائية والمتوسطة.

ثم لما مات والده درس في مدرسة البيطرة، وتخرج فيها سنة ١٨٩٣ ليعمل مفتشاً في وزارة الزراعة.

ولم ينس أن يغترف من مصادر الإسلام فحفظ القرآن وهو مازال بعد في التاسعة من عمره، على يد إمام جامع الفاتح، ودرس الحديث، واللغة العربية، ودرس أيضاً الفارسية والفرنسية.

وبعد تخرجه في مدرسة البيطرة دار في الأناضول والبلقان وسوريا والجزيرة العربية، واقترب من الناس فعرف أحوالهم، وسَبْر شؤونهم، ثم صار مدرساً في اسطنبول سنة ١٩٠٦- ١٩٠٧.

وبعد إعلان الحكم الدستوري سنة ١٩٠٨ شارك في إصدار مجلة "الصراط المستقيم" ونشر فيها أكثر أعماله الأدبية والفكرية، وفي السنة نفسها عُين مدرساً للأدب في دار الفنون "جامعة اسطنبول"، وأسند إليه تدريس الأدب العربي وأصول الترجمة بين العربية والتركية.

انتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي التي خدعته بشعاراتها، فلما وقف على حقيقتها فترت علاقته بها فتوراً بيناً، وعارض أفكار ضياء آلب الذي كان بمثابة الأب الروحي لتلك الجمعية المشبوهة.

وفي سنة ١٩١٥ زار ألمانيا في مهمة من قبل الدولة فبقي في برلين ثلاثة أشهر، ورأى هنالك أسرى للمسلمين تابعين للدولة الروسية والإنجليزية فتفقد شؤونهم، ثم عاد إلى بلاده.

ولما هزمت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ودخل الحلفاء تركيا شارك في تحرير بلاده بقصائد شعرية ملهبة.

وانتخب بعد ذلك في مجلس النواب في دورته ١٩٢٠-١٩٢٣ ممثلاً عن محافظته، وفي تلك السنوات كتب نشيد الاستقلال الذي أقره البرلمان التركي ليكون نشيداً رسمياً لتركيا في ١٢ مارس سنة ١٩٢١، وكان هناك سبعمائة متسابق قدموا أناشيدهم قبله فلم يفز أي منهم، ومما جاء في هذا النشيد:

أنت ابن شهيد حذار من أن تؤذي أباك، لا تتخل عن هذا الوطن الجنة وإن امتلكت العوالم، أيها الهلال الجميل لن تُمزق سأفديك بنفسي ...

إلى آخر ما جاء في النشيد الذي ردده ويردده مئات الملايين من الأتراك منذ قرابة تسعين سنة إلى يومنا هذا.

ثم لما انتهت مدته في مجلس النواب عاد إلى اسطنبول من أنقرة، ولم يُدع من الحزب الحاكم لخوض الانتخابات مرة أخرى؛ ويبدو أن هذا كان بسبب اتجاهه الإسلامي الظاهر.

ولما ألغى مصطفى كمال السلطنة فالخلافة، ونكل بالشعب التركي كل التنكيل صُدم عاكف صدمة بالغة، وذلك لأنه كان يدعو إلى الوحدة الإسلامية في أشعاره وكتاباته، فرأى ذلك قد ذهب أدراج الرياح، ورأى أن التركي المسكين كان يعدم من أجل إصراره على الطربوش ورفضه القبعة، ورأى الإسلام يحارب حرباً شعواء، فلما وقف على ذلك كله آثر الخروج من تركيا.

فيمم وجهه شطر مصر، التي زارها من قبل مرتين مدعواً من قبل صديقه الأمير عباس حليم باشا، سنتي ١٩١٤، ١٩٢٤، ووصلها في المرة الثالثة سنة ١٩٢٥، وتوطدت صلته فيها بالأديب المصري عبدالوهاب عزام الذي مهد له الطريق إلى تدريس اللغة التركية في جامعة فؤاد: "القاهرة"، وهيأ له الصلة بمثقفي مصر.

لكنه عانى في مصر من زوجه التي أصبحت حادة المزاج، وعانى من الفقر والوحدة، وعانى كثيراً من غربته، وفي سنة ١٩٣٥

-بعد عشر سنوات من إقامته بمصر- غادرها إلى لبنان للاستجمام ومن ثم إلى اسطنبول ليموت بها في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦.

وكان محرر مجلة "يدي كون" التركية الأستاذ قندمير قد اجتمع بالأستاذ في المستشفى، وإليكم أهم ما دار بينهما من الحديث الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد يلماز مدرس اللغة العربية بكلية الإلهيات بجامعة أولوداغ التركية:

ـــ استغرق السفر من مصر إلى هنا ثلاث ليال غير أنها كانت بالنسبة لي ثلاثين قرناً، أمضيت هناك أحد عشر عاماً إلا أني شعرت في لحظة من اللحظات أني لو بقيت هناك أحد عشر يوماً أخرى لجن جنوني.

ـــ الشوق؟

ـــ مؤلم جداً.

ـــ طيب، ماذا عن فرحة اللقاء؟

ـــ لا تسألني عن ذلك يا بني فأنا لا أجرؤ على طرح السؤال حتى على نفسي، لكني مع الأسف الشديد وجدت نفسي على هذا السرير بمجرد ما خرجت من الباخرة فلم أتمكن من مشاهدة أي شيء.

ـــ ثم تحدث عن أيام الجهاد ضد الكفار الذين وطئوا أرض تركيا في الحرب العالمية الأولى فقال:

ـــ غادرت اسطنبول حيث أقلتنا سيارة من أُسكدار إلى قرية لا أتذكر اسمها في الوقت الحالي ... كنا نستقل في رحلتنا تارة عربة تجرها الثيران وأخرى تجرها الأحصنة حتى وصلنا إلى أنقرة ... كانت تلك الأيام ما أشد هياجها خصوصاً يوم سقطت بورصة ... لكننا لم نفقد ثقتنا ولو يوماً واحداً و لم نسمح لليأس أن يتسرب إلى قلوبنا أبداً، فهل كان هناك مناص أمامنا غير الجد؟

لم نكن نمتلك مدافع ولا بنادق لكننا كنا نمتلك إيماننا الراسخ في قلوبنا والحمد لله.

ــــ كيف قمتم بكتابة نشيد الاستقلال؟

ــــ حقاً إنما يكتب هذا الكلام بالإيمان والأمة المؤمنة فقط، فكروا معي قليلاً: هل كان بإمكاني أن أكتب كل هذا لو لم أمتلك الإيمان الراسخ وقتذاك ... ولا بد لي أن ألفت الانتباه إلى أنه لا قيمة لنشيد الاستقلال على اعتبار أنه مجرد شعر وإنما تكمن قيمته في كونه أنه يعكس صفحة من صفحات تاريخنا بما فيها من آلام.

ــــ وماذا عن النصر العظيم؟

ــــ كنا في فرحة غامرة.

ــــ ألم تقوموا بكتابة شيء ما عند ذلك ؟

ــــ نفدت كل طاقاتي في تلك اللحظات فلم أعد أقدر على التفكير في أي شيء ولا على سماع أيّ شيء، ولا كتابة أي شيء ...

ــــ كيف قضيتم الوقت في مصر؟

ـــ هناك مدينة اسمها حلوان تقع على بعد خمسة وعشرين كيلاً من القاهرة، وهي مدينة هادئة كنت أقطنها، فأنا بطبعي إنسان هادئ لا أحب الضجيج، وكذلك في اسطنبول كنت على الحال نفسها من قبل، ففضلت العيش في مدينة حلوان لغاية ما كلفت بمهمة في دار الفنون، وفي الأيام الأخيرة حللت بالقاهرة.

ـــ فهل أحببتم مصر؟

ـــ نعم فهناك جوانب جميلة بمصر خصوصاً في فصل الشتاء، وكذلك في فصل الصيف لم أكن أتضايق من الطقس الحار ... والبيوت بنيت على طراز يتناسب مع الطقس هناك فلا تتعدى الحرارة داخل الغرف في أشد الأيام حرارة ثمانياً وعشرين أو ثلاثين درجة ...

ـــ هل تسهل عليك الكتابة؟

ـــ لا، أبذل مجهوداً كبيراً وأُعمل ذهني حيث أدرس الموضوع بكل تفاصيله في ذهني وأخيراً عندما أنقله على الورق أتعب كثيراً.

من أعماله:

قد كتب عاكف كثيراً من المقالات السياسية والأدبية في مجلته "الصراط المستقيم" والتي صار اسمها بعد ذلك "سبيل الرشاد"، ومما كتبه:

"لم يكن أمام مسلمي الأناضول التركي بعد أن رأوا حجم مصيبة الاعتداء على حرمة أراضيهم غير العودة مجدداً لحمل السلاح والعمل على صد حملات أهل الصليب في حضارة القرن العشرين".

وكتب منتقداً القومية التي شاعت في تركيا آنذاك:

" ياجماعة المسلمين:

أنتم لستم بعرب، ولا ترك، ولا بلقانيين، ولا أكراد، ولا قوقازيين، ولا شركس، أنتم فقط عبارة عن أفراد في أمة واحدة هي الأمة الإسلامية، وكلما حافظتم على الإسلامية لم تفقدوا قومياتكم"

وقد شغف في صدر شبابه بالشاعر الفارسي سعدي الشيرازي وترجم أكثر شعره إلى التركية، وأعجب بالشاعر المصري ابن الفارض ولعله لم يتنبه لما في بعض شعره من ضلالات وذلك لأنه -أي عاكفاً- لم يكن متضلعاً من العلوم الشرعية، والله أعلم.

وأما شعره فمجموع في دواوين سبعة ما زالت تروج بين الأتراك، وقد أبصر ديوانه الأول النور سنة ١٩١١ وسماه بـــ"صفحات" وفي سنة ١٩١٢ صدر ديوانه الثاني بعنوان "في منبر السليمانية" جمع فيه مقطوعات من شعره الديني والأخلاقي، وفي سنة ١٩١٣ صدر ديوانه الثالث "أصوات الحق" الذي حوى إشارات في تفسير القرآن العظيم وبيان بعض الأحاديث الشريفة، وفي سنة ١٩١٤ صدر ديوانه الرابع "في منبر الفاتح" الذي أورد فيه شعره عن ثورات البلقان ضد الأتراك ونتائجها السيئة، وفي سنة ١٩١٧ صدر ديوانه الخامس: "الخواطر" الذي حوى شعره عن رحلته إلى مصر وألمانيا، ثم صدر ديوانه السادس: "عاصم" سنة ١٩١٩ الذي حوى شعره عن

حرب الاستقلال، ثم صدر ديوانه السابع: "الظلال" الذي حوى أعماله من سنة ١٩١٨-١٩٣٣.

كتب قصيدة بعنوان "من صحراء نجد إلى المدينة المنورة" تحدث فيها عن زيارته للمدينة المنورة سنة ١٩١٤.

ومن شعره الذي ترجمه صديقه الدكتور عبدالوهاب عزام رحمهما الله تعالى:

ما كنت لأقف معقول اللسان أقلب الطرف فيما حولي، و لم يكن لي بد أن أنوح لأوقظ الإسلام، إنما أريد أن تفور القلوب المرهفة الحس، الراسخة الإيمان ...

إني أنوح ولكن لمن ؟ أين أهل الدار ؟ أقلب طرفي فلا أظفر إلا بأمم نائمة.

ومن شعره لما زار الأقصر فوجد فيه سياحاً أجانب فرنسيين وإنجليزيين وألمانيين يحتسون الخمر، ورأى أمامه آثار الفراعنة فقال:

"رأيت أمامي نحو ثلاثة عشر نفراً من السائحين ما بين فرنسيين وإنجليز وألمان، مجتمعين زرافات ووحداناً وللكؤوس بينهم رنين، فالفرنسيين يضحكون لأن كيسهم المملوء يهز الدنيا المدينة لهم هزاً عنيفاً، وليس في الدنيا ما يحزنهم إلا هزيمة "سيدان" ومع ذلك فإن الرغد والرفاهية ينسيان الإنسان أنكى الجروح.

والإنجليز يضحكون وما أجدرهم بالضحك لأن الدنيا كلها رهن إشارتهم ... يؤلبون شعوب الأرض بعضها على بعض وينظرون عن بُعد فرحين ...

والألمان يضحكون لأن قوة عضدهم كفيلة بأن يصدق العلم جميع ما يقولون، وما دام البشر لا يعطى الحق إلا للقوة، فما الحيلة في الوصول إلى الحق بغير القوة.

أضعيف أنت إذن ؟ فالنحيب أولى بك، نعم في هذه الساحة من الصخب: صخب الحبور، وجلبة السرور، أنا وحدي اليائس الذي

لا يبتسم، قد أخذت أبكي وما أجدرني بالبكاء، فأنا كالقريب من ديار ديني ... هذه السهول لا ترجع حديثي، أيها الشرق العظيم، أيها العالم المترامي الأطراف: ليت شعري في أي بقعة من بقاعك نجد أبناءك السعداء، إن رأسك ترزح تحت الشدائد وعضدك واه، وذراعيك مغلولتان، ولما يهب نسيم الاستقلال على قلبك بعد، قد طفت في أرجائك كلها لأرى أمامي داراً للإسلام فكلّت قدماي.

وكلما تناهت إلي من سبيلي أصوات الأجانب لم تفض روحي الباكية إلا بخيبة الأمل، فهل كان نصيبي أن أكون غريباً في قلب الإسلام؟ إن هذه العاقبة لأقصى انتقام للأيام، والآن وقد تقدمت بي السنون ووهت قدماي فعلى بنيّ أن يجاهدوا ويأخذوا بثأري".

وفي كلامه تشاؤم لا يوافق عليه، لكن أنى لمثله أن يتفاءل وهو يرى الأكثرية الساحقة من ديار الإسلام آنذاك محتلة ومسحوقة، وهو يرى أكثر المسلمين آنذاك في صدٍّ عن الإسلام وهجران لشريعته

وشعائره، لقد كان يعيش في مدة مظلمة، لم يكن فيها بصيص من نور يبشر بعودة الإسلام من جديد، وأقول دائماً لبعض إخواني: احمدوا الله -تعالى- على أنكم لم تعيشوا في ذلك الزمان وجئتم في زمان كل ما فيه يبشر بعودة الإسلام من جديد، ولله الحمد والمنة.

ومن أعماله ترجمة معاني القرآن إلى التركية، صنع ذلك في مصر أيام منفاه فيها، لكنه –على حذره في الترجمة واهتمامه بها- لم يرض عن عمله هذا فطواه ولم ينشره حتى ذهب أدراج الرياح.

أشخاص تأثر بهم:

وكان قد تأثر كثيراً بالأستاذ جمال الدين الأفغاني –رحمه الله تعالى- ودعوته لنبذ الاستبداد ونيل الحريات ولو بالقوة، وكان يردد آراءه وآراء تلميذه الأستاذ محمد عبده –رحمه الله تعالى- وترجم كثيراً من تلك الآراء إلى اللغة التركية، وأفراد لمقالات الأستاذ محمد فريد

وجدي رحمه الله تعالى حيزاً كبيراً من جريدته، وترجم كتاب الأستاذ فريد "المرأة المسلمة".

وتأثر بالشاعر الكبير محمد إقبال وصيحاته الثائرة، وقد أخبر عنه صديقه الأديب الدكتور عبدالوهاب عزام:

"كم تحدثنا وقرأنا في سيرنا وجلوسنا في الآداب الثلاثة: العربية والفارسية والتركية، وكنت أحب أن أقرأ عليه شعره، وكان يسره أن يستمع إليه، وكانت كل أحاديثنا وقراءاتنا متعة نجتمع فيها على الفكر والذوق والأمل والألم.

وكان أطيب المجالس مجلساً نفرغ فيه إلى شعر محمد إقبال، فقد عرّفني رحمه الله بإقبال يوم أعارني ديوانه "بيام مشرق" فإذا صفا الوقت عمدت إلى أحد كتب إقبال فقرأت، واستمع مقبلاً مستغرقاً، يقطع إنشادي في الحين بعد الحين بالاستعادة أو الاستحسان أو التعجب أو التأوه وأذكر أننا بدأنا كتاب إقبال "أسرار خودي" فوالينا

الجلسات حتى أنهيناه إنشاداً ثم أتبعنا به أخاه "رموز بي خودي" فختمناه على شوق إلى الإعادة.

قال عنه: الأستاذ الألماني ريتشارد هرتمان:

"هو مع إحاطته –على العموم- بالحياة الثقافية والسياسية يتعمق من الوجهة الإصلاحية في الدين، وما يعنيه من الرجوع إلى الإسلام يعني به الرجوع إلى الإسلام القديم لا بإبعاد الأمور التي غيرت منه أثناء تطوره التاريخي فحسب بل أيضاً وقبل كل شيء يريد الوقوف ضد هؤلاء العصريين المندفعين في تيار الغرب، وضد دعاة المذهب القومي، فهي حركة دينية تريد أن يكون الدين قوة تخضع لها كل الحياة المدنية في غير إضرار بحركة الفرد".

ولم يكن له كبير ذكر في بلاده إلى أن قرر مجلس الأمة التركي في ٤ مايو ٢٠٠٧ قراراً باعتبار يوم ١٢ مارس من كل عام

يوماً وطنياً للاحتفال رسمياً بذكرى قبول النشيد الوطني التركي والاحتفاء بشاعره، ولعل في هذا شيئاً من التكريم له والوفاء.

تلك كانت سيرة عاكف الشاعر التركي الكبير بإيجاز، وقد عاش في مدة صعبة جداً، ولم يكن فيها للإسلام رجال يعملون له إلا القليل، فلذلك غلب على شعره التشاؤم والبكائيات، لكن حسبه أنه حاول أن ينصر الإسلام ويوقظ المسلمين من باب الشعر والأدب، ولعل ذلك كان أقصى ما يستطيع عمله وهو غريب نائي الدار عن وطنه وأهله، ولنسأل الله له الرحمة والغفران.

١٠ - الشيخ المجاهـــد

سعيد بيران الكـــردي

١٢٨٢-١٣٤٣

١٨٦٥-١٩٢٥

عندما أسس مصطفى كمال جمهورية تركيا الحديثة أقامها على بتِّ الصلة بالإسلام، وقطع صلاتها بالمسلمين، وأرغم الأتراك على التفرنج في الهيئة والسلوك، وشجع النـــزعات الإلحادية، وقمع الصوت الإسلامي تماماً، وكلح وجه تركيا، وكان العلماء آنذاك يدورون بين خيارات: إما السكوت على مضض والانحناء أمام تلك العاصفة الهوجاء، وإما المهادنة والرضا، وإما الاعتراض، وإما الثورة

والعصيان، وقد واجه مصطفى كمال اعتراضات العلماء بوحشية وصفاقة، فأعدم منهم عدداً كبيراً، وسجن آخرين، أما العلماء الذين عصوا وثاروا -وكانوا قلة نادرة- فقد واجههم الجيش التركي الجرار الذي لم يبق ولم يذر، وقضى على ثورتهم بسرعة، ومن هؤلاء الشيخ سعيد بيران.

وهو سعيد بن محمود بن علي البالوي نسبة إلى بالو وهي منطقة من المناطق الكردية، وكان جده علي قد استقر فيها ونُسب إليها، ولد الشيخ سعيد في بالو هذه سنة ١٨٦٥ في قرية بيران، وتعلم على يد والده، فحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة، ثم درس الفقه، وكان والده زعيماً دينياً يلتف حوله الناس، وكان نقشبندياً، فلما مات ورثه ولده سعيد هذا في الزعامة الدينية والتف حوله الأكراد وبعض الأتراك، ومن المعلوم أن الطريقة النقشبندية تقل فيها البدع وكثير من زعمائها مجاهدون لهم أيادٍ بيضاء في الجهاد، وكان منهم الإمام شامل في داغستان والشيشان.

وكان عدد من اجتمع حول الشيخ سعيد قرابة اثني عشر ألفاً، وهو عدد ضخم يغري بعمل شيء لوقف الإلحاد، ولا يُنسى في هذا المقام حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة".

بذل الشيخ سعيد جهوداً كبيرة في نشر العلم في مناطق الكرد، وكان مجلسه يضم العلماء والعبّاد والرجال الأشداء الذين يرغبون في الجهاد، وكان لا يقبل من أحد أن يقبل يده أو ينحني له كما كان الناس يفعلون بالمشايخ آنذاك.

وكان للشيخ جولات استقطب فيها بعض العائلات الكردية، وشارك في جمعية "آزادي" وهي جمعية كردية جعلت من أهدافها نيل الأكراد حقوقهم، وكان من المنتظر أن تقوم جمعية كهذه في خضم الصيحات المجنونة التي كان يطلقها الطورانيون الأتراك، والأعمال ذات الصبغة القومية التي كانوا يقومون بها، ونحن نعلم أنه لا ينبغي -في ظل الإسلام الوارف- أن تقوم جمعية للكرد وأخرى للترك وثالثة للعرب، فهذا الصنيع قاصم للوحدة الإسلامية وقاصم لظهر الإسلام القوي.

وقد هم الشيخ رحمه الله تعالى أن يؤسس جامعة إسلامية في منطقة "وان" الكردية تكون على غرار جامعة الأزهر في القاهرة لكن بعض المشايخ الأكراد وقفوا ضد هذا المشروع فلم يكتب له الظهور.

وكان للشيخ صلات مع بعض المثقفين الأكراد في اسطنبول عن طريق ابنه علي رضا والشيخ عبدالقادر أفندي نجل الشيخ عبيد الله النهري، لكن لا ندري ما الذي استفاده من صلاته هذه، فإن المعلومات عن الشيخ سعيد بقيت شذرات قليلة ليس فيها تفصيلات.

موجز تاريخي لمناطق الأكراد آنذاك:

في سنوات الحرب العالمية الأولى احتل الروس كثيراً من مناطق الأكراد، وتركوا الأرمن يعيثون في بعضها فساداً، وفي سنة ١٩١٧ انتصرت الثورة البلشفية في موسكو وانسحبت القوات الروسية من مناطق الأكراد وسلمتها إلى الميليشيات الأرمنية، وكان القائد خالد جبري آنذاك هو الشخص المحبوب المطاع لدى الأكراد، وكان قائداً

لإحدى الفرق العسكرية للجيش العثماني وكان حميدياً مؤيداً للسلطان عبدالحميد وداعياً للخلافة العثمانية، فدعا إلى قتال الأرمن وإخراجهم من المنطقة الكردية، وفعلاً استطاع خالد جبري ومن معه أن يخرجوا الأرمن، وفي سنة ١٩٢٠ حرروا أرض الكرد وطهروها من الأرمن تماماً.

ولما عقدت معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ نصّت على بقاء ديار الكرد في الجمهورية التركية، وهذا لم يعجب خالداً جبري فخطط للثورة هو ومجموعة من القواد في ديار بكر، لكن هذا الأمر انكشف وأعدم خالد جبري ونائبه في التنظيم السري قبل أن تنطلق الثورة.

وفي شهر فبراير من سنة ١٩٢٥ اجتمع أعضاء التنظيم من تركيا والعراق وسوريا في حلب وقرروا انتخاب الشيخ سعيد قائداً عاماً للثورة خلفاً لخالد جبري، ورئيساً لجمعية آزادي، وعين المؤتمرون الجبهات الثورية وقياداتها على النحو التالي:

جبهة بالو بقيادة الشيخ شريف ومعه ١٨ ألف مقاتل.

وجبهة فارتو بقيادة الضابط عبدالله ملكان وعلي رضا نجل الشيخ سعيد والعقيد خليل حتو ومعهم ١٢ ألف مقاتل.

وعلى هذا المنوال عينت جبهات القتال الأخرى في ديار بكر وباخر ومادن وبوتان وساسون إلى آخره ...

وقد حدث خطأ عقب هذا التوزيع نشأت بسببه الثورة مبكراً، أي أن الأكراد ثاروا قبل اكتمال استعدادهم، وسبب هذا أن الشيخ سعيداً قام بجولة واسعة في مناطق الأكراد لتهيئتها للثورة، وكان معه مئات من مناصريه، وكانت الثورة قد خُطط لها أن تبدأ صبيحة عيد النوروز في ٢١ مارس/آذار سنة ١٩٢٥ وهو يوم العيد القومي للكرد، ووصل الشيخ إلى قريته بيران، وصادف قدومه دخول مفرزة من الجيش التركي لاعتقال بعض الشباب الأكراد، فطلب الشيخ سعيد من رئيس المفرزة -حسني أفندي- احترام وجوده وتأجيل اعتقال من

يريد بعد أن يغادر الشيخ القرية فرفض رئيس المفرزة، فنشب صراع مسلح بين الطرفين أدى لمقتل بعض الجنود الأتراك وأسر القائد وبعض من معه، فظن بعض قادة الجبهات الكردية أن الشيخ سعيداً بدأ الثورة فهاجموا القوات التركية المنتشرة في مناطقهم، واندلعت الثورة في مناطق الأكراد بسرعة، وانضم إليهم بعض العرب والشركس والأرمن.

وسيطر الشيخ عبدالرحيم أخو الشيخ سعيد على محافظة "كينجو" التي أُعلنت عاصمة مؤقتة للأكراد.

وقام طاهر بيران -أخو الشيخ سعيد أيضاً- بالاستيلاء على البريد من ليجة إلى سردي، ووصل بمائتي مقاتل إلى كينجو وسلم للشيخ سعيد الوثائق والأموال.

وبهذه الأحداث ابتدأت حركة الشيخ سعيد الثورية قبل أربعين يوماً تقريباً من الوقت المقرر لها، وتولى فقي حسن رئيس

عشيرة مودان إدارة محافظة "كينجو"، وألغى الشيخ سعيد ضريبة العشر، وهذا جلب رضا السكان، وسُجن المحافظ التركي والموظفون الأتراك.

ــ عقد مجلس الوزراء التركي جلسة عاجلة في ١٩٢٥/٢/٢٢ شارك فيها رئيس الأركان فوزي باشا، وأعلنت حالة الطوارئ في منطقة الانتفاضة.

ــ في ١٩٢٥/٢/٢٥ عقد البرلمان التركي جلسة عدل فيها القانون رقم ٥٥٦ الخاص بالعقوبات على خيانة الوطن ليصبح كالتالي:

"منع إنشاء المنظمات السياسية على أسس دينية، وكذلك استخدام الدين في سبيل تحقيق الأهداف السياسية، واعتبار الأشخاص القائمين بمثل هذه الأعمال أو المنتسبين إلى مثل هذه التنظيمات خونة"، ولعل هذا القانون هو الأول في البلاد الإسلامية وهو السابق إلى تأسيس هذا الفهم الخاطئ ألا وهو فصل الدين عن السياسة.

ـــ في ١٩٢٥/٢/٢٨ أحرزت الثورة انتصارات، والتف حولها عشرون ألفاً تقريباً من المقاتلين الأكراد، واستولت على ليجة وخاني، وارتبكت الحكومة التركية.

ـــ في ٢/مارس/آذار سنة ١٩٢٥ استقالت حكومة فتحي بك وتولى عصمت إينونو رئاسة الوزراء، وأعلنت الحكومة تدابير جديدة لقمع انتفاضة الشيخ سعيد، وسن البرلمان قانوناً يسمح بإنشاء محكمتين: إحداهما في أنقرة والأخرى في الولايات الشرقية -مناطق الأكراد- أما الأولى فصلاحيتها محدودة ولابد من مصادقة البرلمان على أحكام الإعدام، أما الأخرى فصلاحياتها مطلقة.

ـــ في ١٩٢٥/٣/١١ أمر الشيخ سعيد بالهجوم على مدينة ديار بكر الحصينة من جميع الجهات لكن القوات التركية المتفوقة عدداً وعدة أفشلت الهجوم فأصدر الشيخ سعيد أمره بالانسحاب.

ــ في ١٩٢٥/٣/٣١ هاجمت القوات الحكومية مناطق الانتفاضة وحصل تحول في موازين القوى ضعف على إثره الأكراد.

ــ في ١٩٢٥/٤/٦ تراجع الشيخ سعيد ومعه مئات من مقاتليه إلى صالحان.

ــ وفي ٤/١٠ حوصرت قوات الانتفاضة في "كينجو" وحُطمت، وقبض على الشيخ سعيد وعدد من أتباعه.

ــ في ٥/٢٩ بدأت محاكمة الشيخ سعيد ورفاقه، واستغرقت شهراً كاملاً.

ــ في ٦/٢٩ صدر حكم بالإعدام شنقاً على الشيخ سعيد ورفاقه ونفذ في اليوم التالي في ساحة المسجد الكبير في ديار بكر، وفوق منصة الإعدام قال الشيخ سعيد:

"إن الحياة الطبيعية تقترب من نهايتها و لم آسف قط عندما أضحي بنفسي في سبيل الله، وإننا مسرورون لأن أحفادنا سوف لن يخجلوا منا أمام الأعداء".

عقب إخماد الثورة نكل الكماليون بالأكراد تنكيلاً فظيعاً استمر إلى سنة ١٩٢٨.

جوانب مهمة في ثورة الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

ـــ حاول الشيخ سعيد إقناع بديع الزمان سعيد النورسي الكردي المشهور بأن يثور معه لكن بديع الزمان رفض ورأى أن يخدم الإسلام على النحو الذي صنعه، ولكل منهما أجر اجتهاده إن شاء الله تعالى.

ـــ يمكن أن يعد الشيخ سعيد أول شيخ في القرن الماضي يقود ثورة وينجح في إدارة أجزاء من بلاده برهة من الزمن، وحركته جديرة بالدراسة من قِبَل كل من يريد معرفة الحركات الثورية على الحكام

الظلمة والكفرة في العصر الحديث وتأصيلاتها الشرعية وفقهها الحركي.

ـــ لم تكن ثورة الشيخ سعيد لأجل القومية الكردية كما أشاع مصطفى كمال وأنصاره، إنما كانت لوجه الله تعالى، ويمكن أن بعض أنصاره ثاروا ثأراً لقوميتهم لكن هذا كان رد فعل متوقع في ظل السياسة القومية الطورانية الهوجاء التي كانت تدير بها حكومة أنقرة البلاد، لكن الشيخ سعيداً كانت منطلقاته إسلامية محضة، ويدل على هذا ما ذكره الملا أبوبكر في موقع جريدة "الاتحاد" في شبكة المعلومات حيث قال ما ملخصه:

ظن بعض الناس أن الشيخ سعيداً قاد الثورة من أجل حقوق الكرد القومية، وهو ما ادعته الحكومة الكمالية وأعلنته أثناء محاربة الشيخ، وهو نفس ما تدعيه بعض الحركات القومية الكردية إلى يومنا هذا إذ نسبوها إلى جمعية "آزادي" وجمعية "تعالي وترقية كردستان"،

وهو أيضاً ما ركز عليه بعض المستشرقين في كتاباتهم التاريخية عن الثورة.

إلا أن الوثائق التي ظهرت في السنين الأخيرة أثبتت إسلاميتها وقيامها لأجل إعادة الخلافة وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وكانت الحكومة التركية تعد وثائق حركة الشيخ سعيد بيران إلى سنة ١٩٧٧ وثائق سرية وتحظر الاطلاع عليها.

وقد ظهرت في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي دراسات ووثائق توضح حقيقة الثورة وأهدافها، وأن الشيخ أعلن الثورة باسم الله، واتخذ لها راية خضراء هي راية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمل شعاراً لها: لتحيا الخلافة ولتسقط الجمهورية، وكان يتلقب بخادم المجاهدين.

وقد نشرت وثيقة سرية لمجلس الأمن التركي تبين أن ثورة الشيخ سعيد إسلامية، ومما جاء في وثائق محاكمات الشيخ سعيد أن

القاضي عندما اتهمه بأن دوافعه قومية قال له: يشهد الله أن الثورة لم تكن من صنع السياسيين الكرد -القوميين- ولا بسبب تدخل الأجانب.

وقد سأله القاضي: هل تريد أن تصبح خليفة؟

فقال: إن وجود الخليفة ضمانة أساسية لتطبيق قواعد الدين، وإن المسألة مطلوبة شرعاً.

وسأله: هل كان إعلانكم للعصيان يعني أنكم وصلتم إلى قناعة تامة بأن الشريعة غير مطبقة في البلد؟

فأجابه: إن القرآن الكريم يؤكد على الخروج على الحاكم في الظروف التي أشرنا إليها أعلاه، وتطبيق الشريعة يعني منع الهَرْج والمرج: القتل والزنا وشرب الخمر إلخ ... وبحمد الله كلنا مسلمون ولا يجب التمييز بين الكرد والترك، وحسب اعتقادنا أن هذه الأمور حالياً متروكة، إننا انطلقنا من هذه القناعة وعلى أساس القرآن الكريم.

واتُهم الشيخ سعيد بأن الأجانب ساعدوه أي الإنجليز والفرنسيين، وقد تبين أن الإنجليز لم يساعدوه بل ساعدوا مصطفى كمال الذي قاتل الشيخ سعيداً بمدافع الإنجليز، وتبين أن الأتراك طلبوا من الفرنسيين المحتلين لسوريا آنذاك أن يسمحوا بمرور ٤ قطارات يومياً على الخط الحديدي بغداد-حلب-اسطنبول لنقل خمسة وعشرين ألف جندي تركي مع عتادهم إلى مناطق القتال.

ـــ كانت الثورة في الجملة غير ناضجة، ولم يسبقها إعداد كاف ولا تربية جهادية واضحة لسائر الأكراد، وقد ذكرت أن الشيخ سعيداً وجد نفسه في مواجهة الجنود الأتراك قبل الموعد المخطط له بأربعين يوماً، كل هذه العوامل أدت إلى إجهاض مبكر للثورة.

لكن يكفي الشيخ أنه ثار لوجه الله تعالى، وترك تراثاً جهادياً ناصعاً يستمد منه المجاهدون إلى قيام الساعة معاني جليلة وقيماً عظيمة، ويكفيه أنه أول شيخ -فيما أعلم- ثار في القرن الماضي أمام

الحكومات الظالمة أو الكافرة وترك بذلك تجربة مهمة تستضيء بها الأجيال.

كان الشيخ سعيد واعياً بمتطلبات زمانه، فاهماً لفقه الواقع، وهذا ما ميزه عن كثير من المشايخ الذين كانوا في غفلة، وكان مخلصاً -كما أحسبه إن شاء الله- وهذا ما ميزه عن بعض مشايخ السوء الذي باعوا دينهم بدنيا غيرهم.

وكان يفهم الإسلام بشمول جامع بين النواحي الدينية والسياسية على وجه غير مسبوق إلا من قلة قليلة من المشايخ الذين جاؤوا في العصر الحديث وكان لهم محاولات إصلاحية، بينما كان كثير من المشايخ في عمى عن هذا الشمول في تناول القضايا الإسلامية والتعامل معها.

تلك كانت سيرة الشيخ المجاهد سعيد بيران الكردي، وأزعم أن سيرته بحاجة إلى دراسة شاملة وواسعة من قبل مؤرخي الإسلام

عامة ومؤرخي الكرد خاصة فما هو موجود منها إنما هو شذرات قليلة لا توفي بحق هذا المجاهد العظيم الذي لم يصبر على إعلان الكفر في تركيا وتحويلها عن قبلتها الإسلامية وماضيها المجيد، والله الموفق.

فهرس الموضوعات